رواية

غريق جنّة الإغريق

رواد العوام

مكتبة نوميديا 230

Telegram @Numidia_Library

مدارك

غَرِيقْ جَنَّة الإِغْرِيقْ

الكتاب: غَرِيقْ جَنَّة الإغْرِيقْ

المؤلف: رواد العوام

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: أغسطس 2019

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 9948 - 27 - 828 - 2

Madarek مدارك

Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

الرياض:

7917 شارع التخصصي، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي- الإمارات العربية المتحدة

P.O.Box: 333577, Dubai, UAE. Tel: +971 4 380 4774, Fax: +971 4 380 5977

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت- لبنان

P.O.Box: 50074, Forn Elchebbak, Lebanon.

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

رواد العوام

غَرِيقْ جَنَّة الإِغْرِيقْ

الفهرس

إهداء ٩
شكر وتقدير ١١
الفصل الأول: الكمين ١٣
مقهى أبو شبك..... ١٤
أنطوانيت..... ٢١
جورجي وكلودين ٢٦
أم حنا..... ٣٢
عماد..... ٣٨
نديم ٤١
الفصل الثاني: الانتظار ٤٥
التأشيرة..... ٤٦
السماء ليست زرقاء..... ٥٠
الدلو المثقوب ٥٣
هزيمة دافئة..... ٥٦
لا أحد يحبها ٥٩
الفصل الثالث: قادمون يا ماما ميركل ٦٣
ميناء طرابلس ٦٤

الفصل الرابع: طريق الملح ٧٩
مقهى هازال ٨٠
صباح بارد ٨٦
فاتورة نعم ٩٠
هذا ما سأقوله فقط ٩٤
حاضراً على الجدران ٩٨
ألودورم ١٠٦
بلاد الأبد ١١٢
الرابعة والنصف فجراً ١١٥
بندقية بلاستيكية ١١٨
البقاء على الشاطئ ١٢٢
الفصل الخامس: حلم بعكازتين ١٢٥
الرحلة ٤٦٢ ..... ١٢٦
كان يحارب إسراا ١٣٠
الإصدار التركي ١٣٤
القارب المثقوب ١٣٨
تناولت الكحول فقط ١٤١
بلادٌ بارعةٌ في الكوميديا ١٤٤
عبيدٌ بربطات عنقٍ ١٤٧
الفصل السادس: الحزن الأبيض المتوسط ١٥١
عبيد السلام / جنود الحرب ١٥٢
لستُ وحدي تافهاً!! ١٥٦

مقدونيا ١٦١
لا تخلع القفل ١٦٦
الاختطاف ١٧٠
كم هي وفية!! ١٧٣
كم هو غبيّ!! ١٧٦
حيطان برلين ١٧٩
حذرني أبو طارق ١٨٣
محترف الجريمة ١٨٨
كما تقول أنطوانيت ١٩٣
الفصل السابع: بسمة برلين المفخخة ١٩٧
لا ترفعي صوتك في وجهي ١٩٨
صربيا ٢٠٥
لغم بحري ٢٠٨
كمال ورمضان ٢١٤
معركة رودس ٢١٩

إهداء

انت ماهر أيها الوطن بتفريغ رصاصك في أجسادنا

وأنت ماهر أيها البحر بإغواء ضحاياك

وأنتِ ماهرة أيتها الحياة باستدراجنا للغد

نحن عابرو البحر... الضحايا الحالمون

نحمل صليب ألمنا الأبدي...

ونحيي الشعوب التي وحّدها الألم معنا

نحيي القيم الإنسانية العظيمة

ونحيي السيدة ميركل

ضحايا الأبيض المتوسط

شكر وتقدير

للأصدقاء إبراهيم آل سنان وسالم الصقور

الفصل الأول

الكمين

مقهى أبو شبك

اجتمع الثلاثة كعادتهم في مقهى أبو شبك البحري المطلّ على الميناء مباشرة، وكعادتهم كانوا ينتظرون أبا طارق الذي تأخر كعادته عليهم حوالي الساعتين، وكعادتهم، طلب كلٌّ منهم ما يطلبه في العادة، حيث طلب نديم قهوةً سادة بفنجان كبير وعماد كأس شاي على حساب صفوان «كالعادة» وطلب صفوان ميلو مع حليب.

أعادوا الطلب مرة أخرى حينما بدأ لاعبو (الطرنيب) يدخلون أفواجاً إلى المقهى، وبدأ الضجيج يطغى على الهدوء الذي كان سائداً، وعلت أصوات الصراخ والكلام البذيء من الطاولة الملاصقة التي بدأت بها للتو معركة (الطرنيب) حيث كان يقول أحد اللاعبين لشريكه المقابل:

- «أخي من الأول ما بدا حيونة، ركّز معي منيح يرضى عليك».

وعلى طاولة أخرى، ثمة رجل ستيني يضع سيجارة على زاوية فمه ويوزع ورق اللعب على اللاعبين ويطلق تهديداته للاعبين قائلاً:

- «الليلة رح خليكن تناموا طب، الليلة رح خليكن تناموا طب».

فيرد عليه خصمه في اللعبة:

- «معناها حط دوا الضغط قدامك لإنك رح تحتاجو بعد نص ساعة عالأكيد».

كان الثلاثة يستمعون للدارما الساخرة التي تدور على الطاولات ولم يعودوا يفكرون بأبي طارق ولاسيما أنهم كانوا على يقين من عدم مجيئه، فهو حائز، كما يقول صفوان، على شهادة (أيزو) في الكذب، ومرشح لجائزة، كما يقول نديم، (نوبل لقلة الشرف...)

إنه أبو طارق عيشة أحد عناكب مكاتب السفريات في طرابلس، يعمل لصالح مكاتب السفر الرخيصة، حيث تقوم آلية عمله على الطريقة الاستخباراتية الخبيثة، فقد كان يصطاد المسافرين إلى تركيا عبر البحر، ويتعهد لهم بالحصول على التأشيرة وعلى جوازات سفر إن لم يكونوا يملكونها، وحتى على البطاقات الشخصية المزورة. ففي هذه الأيام، تنتشر جوازات السفر والبطاقات وتأشيرات الدخول المزورة.

لقد تعرف أبو طارق على صفوان عن طريق صديق مشترك يعمل مع صفوان يدعى جورجي وذلك أثناء بحث صفوان عن مكتب نقل بحري للسفر إلى تركيا بطريقة غير شرعية. وحينها أقنع أبو طارق صفوان أنه الوحيد، بين كل وسطاء الكرة

الأرضية، الذي يستطيع أن يوصله إلى تركيا عبر البحر عن طريق التهريب، فقال له:

- «ولك حبيبي هدول الأتراك أخوات شليتي، بس عمك أبو طارق بيعرفهم، ماحدا إلا عمك أبو طارق بيقدر يطالعك ويوصلك على مرمريس، لكان عمي لكان».

لم يكن صفوان بحاجةٍ لرجلين ليخدعاه، فرجل واحد كان يكفي لخداعه. فقد أعطاه كل أوراقه وجواز سفره ومبلغاً مالياً كبيراً، وعمل على إقناع كل من نديم وعماد اللذين كانا مترددين جداً، بل شبه ممانعين كونهما كانا يملكان مؤشراتٍ أن الرجل محترفٌ بالنصب والاحتيال. حاول عماد إقناع نديم ألّا يعطيه أوراقه، قائلاً:

- «صفوان غبي، صفوان جاهل، والجاهل شقيق ابن الحرام، سوف يضيعنا صفوان».

أمَّا نديم فكان رغم تردده لديه كثير من الأمل بالوصول إلى أوروبا، والتخلص من جحيم الحياة اليومية في لبنان، فكان يقول لعماد:

- «إذا احتال الرجل علينا سيزداد الحمير ثلاثة، وإذا استطاع تأمين التأشيرات سينقص الحمير اثنين فواحد منا من المحال أن يكون ليس حماراً».

وفي ساعة تخلى بها الله عنهما أعطى عماد ونديم أوراقهما

وجوازات سفريهما وكل ما يملكان من المال لأبي طارق أو كما يسمونه (ولك حبيبي)، ومنذ ذلك الوقت تحول عماد من رجل إلى ندَّابة وأخذ يندب حظَّه العاثر وأمواله الضائعة صباح مساء، بعد أن غاب أبو طارق عن المشهد وظنوه احتال عليهم.

أمَّا صفوان فلم يكن يعير الأمر أهمية قصوى، فبعد موت أبيه أعطته زوجة أبيه مبلغاً مقابل ألّا يعود إلى البيت أبداً، وهذا المبلغ هو الذي دفعه لأبي طارق، وعادةً ما لا تتعب به الأيادي لا تحزن عليه القلوب. أمَّا نديم فقد كان مؤمناً أن ما سيحصل قدرٌ محتومٌ لا يُرَدْ، فإنْ لم تضع أمواله مع (ولك حبيبي) ستضيع في مكان آخر، هذا في حال بقي أبو طارق يكذب عليهم.

وقبل أن يأتي (مستو) عامل المقهى، ليطردهم، كالعادة، بعد أن صارت الساعة حوالي الثانية ليلاً جاء أبو طارق إلى المقهى، فقام (مستو) بطرد الأربعة معاً.

وعلى الكورنيش البحري، بدأ الكلام بين الأربعة، وكان صوت الأمواج المتلاطمة يجبرهم على رفع أصواتهم ليبدو كلامهم أشبه بالصراخ حيث بدأ عماد بالكلام قائلاً:

- «يا أبا طارق والله حرام عليك، يا أخي أعد لنا أموالنا، لم نعد نريد السفر يا أخي، صار لنا أكثر من شهرين ننتظرك وأنت تعدنا ولا تأتي ولا ترد على هاتفك، يا أخي والله حرام يا أخي».

فيقاطعه صفوان قائلاً:

- « يا أبا طارق، لا أهمية للمال الآن، أخبرنا فقط أين صارت أوراقنا؟ ».

فيقاطعه عماد صارخاً:

- «اخرس أنت، أنت سبب البلاء نريد المال أولاً، لا أريد أن أسافر، يا أخي والله حرام يا أخي».

فيرد أبو طارق بنبرةٍ واثقةٍ وهادئة:

- «ولك حبيبي لماذا أنتم (بصلتكم محروقة!؟)، عمكم أبو طارق يريد أن تصلوا بالسلامة إلى تركيا، ولا يريد أن تتعرضوا للأذى، أستطيع غداً أن أرسلكم، ولكن لا أضمن لكم المكان الذي سيلقي به الأتراك جثثكم، هؤلاء (أخوات شليتي)، لأن قتل الرجل عندهم كاحتساء كوب الشراب، لكان عمي لكان.. لا أحد «ولك حبيبي» يستطيع أن يوصلكم إلى تركيا بأمان إلا عمكم أبو طارق، ولكن عليكم الصبر، أرواحكم ليست رخيصة، ولك حبيبي».

فيقاطعه عماد:

- «بلى رخيصة، أخي نريد أموالنا، والله حرام يا أخي حرام».

فيرد أبو طارق غاضباً:

- «ولك حبيبي أموالكم توزعت، دفعنا للمزورين والموظفين والمهربين ومخلصي المعاملات، «ولك حبيبي» أنا أعمل من أجلكم ليلاً ونهاراً، من أجل أن تصلوا إلى مرمريس بخير، فهؤلاء أخوات

شليتي، فقتل الرجل عندهم كاحتساء كوب كابتشينو، لكان عمي لكان».

حينئذٍ يشتهي صفوان الكابتشينو، ويتخيل أنه يشرب فنجاناً تعلوه الرغوة مع الحليب المحلَّى، لكن كلمات نديم تقطع سلسلة أفكاره، حيث كان نديم يمشي خلفهم بخطوتين ويتكلم كلاماً موزوناً بنبرة منخفضةٍ قائلاً:

- «نريد أن نفهم إلى متى سوف نبقى على هذا الحال؟! كل الناس تذهب إلى تركيا ولم نسمع عن أحدٍ مات هناك، لقد وعدتنا أنه في أقل من شهرٍ سوف نأكل الكباب في شوارع مرمريس».

حينها يشتهي صفوان سيخاً من الكباب المشوي على الفحم، ويتخيل أنه يأكل الكباب لولا أن صوت عماد الخشن يقطع المشهد المتخيَّل حين يصرخ:

- « يا أخي، لا نريد الكباب، فالكباب غالٍ يا أخي، نريد أموالنا، حرام يا أخي حرام».

لكن أبو طارق ينهي كلام عماد بكلامٍ حاسمٍ كعادته:

- «لقد وعدتكم ولك حبيبي، وأنا عند وعدي، ولكنني لست ساحراً أستطيع أن آتي لكم بتأشيرةٍ مزورةٍ وجوازاتٍ مزورةٍ، وأرسلكم على متن قاربٍ تجاري إلى مرمريس بحماية أشخاص أعرفهم».

لكن صفوان يقاطعه ويوجه بالكلام للجميع:

- «... لكن الأتراك أخوات شليتي، وقتل الرجل عندهم مثل شرب كأس شاي».

يبتسم أبو طارق في حين يشعر عماد أن النار سوف تخرج من مؤخرة رأسه، أما نديم فيحني رأسه نحو الأرض ويمشي قبل أن يقول أبو طارق:

- «أريد أن أتبول».

يرد صفوان:

- «وأنا أيضاً».

يتبولان على شاطئ البحر، ويلحق بهما عماد الذي كان يخشى من الأحاديث الجانبية، فهو لا يثق بأحدٍ حتى بنفسه، حيث كان يخشى أن يتفقا سويةً فيعطي أبو طارق لصفوان أمواله ويهرب بالباقي، هذا ما قاله لنديم تلك الليلة، وأخبره أنه يخاف أن يكون صفوان متآمراً عليهم مع أبي طارق، لكنَّ نديم (كعادته) بقي بارداً، ونظر إليه باستخفافٍ وبصق عليه، وتثاءب وأغمض عينيه ثم همس بثلاث كلماتٍ بالكاد خرجت من فمه...

أنطوانيت

كانت أنطوانيت تستأجر شقةً في جونيه شمال بيروت، مع ألفيرا التي تعمل معها في الفندق أيضاً. حيث تعرفت أنطوانيت على صفوان حين عمل هناك نادلاً في مطعم تابع للفندق. كان صفوان مستأجراً في مكان بعيد عن الفندق، في أحد الأحياء الشعبية في بيروت، لذلك كان يضطر أن ينام في إحدى زوايا الفندق حتى يحين موعد مغادرته صباحاً.

كان هذا قبل أن يتعرف على أنطوانيت ويقيم علاقة حميمة معها، ومنذ ذلك الحين صار باستطاعته أن ينام في شقتها القريبة من الفندق، ويتخلى عن الغرفة التي كان يتشارك جحيمها ورائحتها القذرة مع عماد ونديم.

كان عمله يبدأ من الساعة الرابعة حتى الثانية عشرة ليلاً، وهي ذاتها ساعات عمل أنطوانيت، ومع قضاء الليلة الأولى معها أدرك الشاب الوسيم أنه من الغباء أن يترك هذا النعيم ويعود لغرفة أم حنا أو (البومة) كما يسميها، فهو بكل بساطة يستطيع أن يأخذ حماماً دافئاً مع أنطوانيت وينام معها يومياً، ويشرب بيرة غالية الثمن ويستلقي على سرير نظيف ومريح دون أن يدفع أي

دولار. أما أنطوانيت فقد كانت مغرمة به وبفتوته وجمال وجهه ومقتنعة أن الرب أرادها أن ترتاح وأن تكون سعيدةً فبعث إليها بشاب وسيم يحب البيرة، ولا يتعب من الجنس، ولا يمل من جسدها، بعد أن بدأت تشعر أن علامات تقدم السن قد بدأت تتسلل إليه تدريجياً، لكن هذا الشاب قد أوقف الزمن وأعاد إليها الشباب، فعادت ترتدي الملابس الداخلية الضيقة، وتعتني بأظافر رجليها من جديد، بعد أن أهملتها الفترة السابقة، كما وبدأت تشعر أنها تعود بعمرها إلى الوراء، وأنها تستطيع أن تكون شابةً من جديد فترضي شاباً ثلاثينياً لا يكتفي بامرأةٍ واحدةٍ أو بساعة جنس واحدة، وزاد تعلقها به ظرافة طبعه وحبُّه للضحك والمتعة، وابتعاده عن الأجواء الحزينة والكلام العميق. كان يحبُّ الحياة البسيطة وعدم التعقيد، ولا يؤمن بأي معتقدٍ دينيّ ولا يحبُّ السياسة، فما كان يشغل باله دوماً هو السيارات الحديثة والأحذية الجديدة وأسلحة الصيد والأغاني ومقاطع الفيديو المضحكة التي كان يتابعها ويبحث عنها ويقتنيها.

وكانت الأيام التي قضياها سويةً من أجمل أيام عمرها، فحاولت جاهدةً أن تقنعه بالزواج منها والتخلي عن فكرة السفر إلى أوروبا، لكنه كان مقتنعاً بالهجرة تماماً، وقد وعدها أن يكونا سوية بعد وصوله لأول بلدٍ أوروبيّ يقبله لاجئاً على أراضيه، ومنذ ذلك الحين بدأتْ أحلام أنطوانيت تكبرُ وتكبرْ، واعتبرتْ أنَّ صفوان هو رجل المستقبل، وعملت على مساعدته وآمنت أن مصيرهما سيكون واحداً، على الرغم من تحذيرات صديقتها المقربة ألفيرا التي كانت تشكُّ في نوايا صفوان الحقيقية، وتقول لها:

- «عندما سيرى الأوروبيات، لن ينظر إلى امرأة طولها مئة وخمسون سنتيمتراً، وتصبغ شعرها مرتين في الشهر».

فتجيب أنطوانيت:

- «أنت تشعرين بالغيرة لأنه يحبني، وتتمنين لو تستطيعين أن تنامي معه، فأنت تنظرين إليه باشتهاء، وأنا أرى ذلك في عينيك».

فتجيب ألفيرا:

- «أنا أحبُّ جورجي ولا أعاشر رجلاً آخر، على الأقل لن يغضب الربُّ مني، فأنا لا أنام إلّا مع رجلٍ مسيحي».

فتضحك أنطوانيت بتلك الطريقة الخبيثة، وتقول:

- «هل تعنين أن معاشرة مسلمٍ عازب جريمة، بينما معاشرتكِ لمسيحيّ متزوجٍ هو أقرب طريقٍ لقلب يسوع ؟!!».

تشعر ألفيرا بالإهانة وتحاول أن تصمت، لكنَّها لا تستطيع، فتقول:

- «أراه ــ كما أراك ــ الآن أمامي في إحدى الدول الأوروبية، من بيت دعارةٍ إلى بيت دعارة، ومن حضن عاهرةٍ إلى حضن عاهرة، وعندما يتذكرك سيقول في نفسه (الحمد لله أنه أرسل لي امرأةً غبية، ساعدتني لأصل إلى هذا النعيم)».

لكنَّ أنطوانيت تنظر إليها وتعبس في وجهها، ثمَّ ترسم ابتسامة الواثق وتقول:

- « أراه ــ كما أراك ــ الآن أمامي، يفتح زجاجتي بيرة ويتجه نحو السرير ليحتفل معي بوصولي من لبنان إلى برلين».

فتصمت ألفيرا وتتجه إلى النافذة التي تطل على البحر، وتنظر إلى البحر الهائج بأمواجه حيث لم تكن تريد أن تكمل الحديث مع أنطوانيت العنيدة، لكن أنطوانيت امرأةٌ لا تصمتْ، فهي تبوح بكل ما يعتريها، ولا تخبئ شيئاً في قلبها، فتقول:

- «لقد شارفتُ على الخمسين، لقد عشت طوال عمري خائفةً من أن أغامر، خشيتُ من المستقبل فتنكر لي حينما وصلت إليه، خذلت الحب في صباي فخذلني قلبي الآن، كنت أخشى من نوايا الرجال فلم أجد من يعشقني بفروسية، وجدت فقط من يرغب بي لأيامٍ، لساعاتٍ، أو لليلةٍ، أو لموعدٍ، لكني لم أجد من يريد البقاء معي دائماً.

كان خوفي من الأشخاص ــ دوماً ــ يجعلهم بعيدين عني، فكل شيء نبتعد عنه يبتعد عنا، وأمام صفوان قررت الاقتراب والاقتحام والمغامرة، لقد خسرت أجمل أيام حياتي في انتظار ما اقتنع به لكنه لم يأت، لقد اكتشفت بعد فوات الأوان أنَّه يجب أن تكون وحدات القياس لدينا منطقية، فمن نحلم بحبهم موجودون فقط في أفلام السينما أمَّا في الواقع فعلينا أن نكون أكثر منطقيةً فقد نجد من نحب على أيّ رصيفٍ، وفي أي موقف باص.

علينا أنْ نحلم فقط بما نستطيع تحقيقه، لا أعرف لمَ أتكلَّم هكذا، أشعر أنَّني أصبحت امرأة غريبة فعندما تهدل ثديي

وبدأت أخشى من علامات تقدم العمر أنْ تتضح على جسدي وبشرتي وشعري، دخل صفوان حياتي، فشعرت أن جسدي يجدّد شبابه، وينتفض من جديد ويلاقي المستعمر من جديد، وصفوان يحبني، إنَّ حدس الأنثى لا يخطئ، هو يحبني فعلاً».

لكنّ ألفيرا وقبل خروجها من الغرفة تقول كلمات مسموعة:

- «بل يحبُّ حقيبة يدك وبطاقتك الائتمانيّة وزجاجات البيرة التي تشترينها له، وغداً عندما تحالين إلى التقاعد ولا يبقى لديك أيُّ شيءٍ سوى جسدك الهزيلْ وثدييك المتهدلين، لن ينتظر أكثر من ربعِ ساعةٍ بجانبك، ليقول لكِ:

-«I must go... good luck» يتوجب عليَّ المغادرة، حظّاً موفقاً».

وتخرج ألفيرا بسرعة لأنها لم تعد ترغب في مواصلة النقاش غير الممتع، كما أنها كانت تنتظر خروجها بفارغ الصبر لأن جورجي بطريقه إليها هذا المساء.

جورجي وكلودين

لم يكن جورجي يعلم أن تلك الليلة ستكون علامةً فارقةً بعلاقته بألفيرا، ولم يستطع معرفة السبب الحقيقي لما حصل معه تلك الليلة، فقد ظنَّ أنَّ كلمات زوجته هي السبب الرئيس في كل ما حصل معه، ثم ينفي لنفسه أن يكون ذلك هو السبب، فهو دائماً يتشاجر مع كلودين وهي دوماً تقول له الكلام الذي قالته اليوم صباحاً، وهو يعلم تماماً أنَّها لا تعير اهتماماً لمشاعره أو لكرامته، فهي تهينه دوماً، وليست هذه أول مرة.

لم يكن يهمُّ كلودين إلّا أنْ يواصل جورجي إنفاقه على الأسرة، خصوصاً بعد أنْ دخل الأولاد إلى الجامعات، وألّا يسبب لها المشاكل داخل البيت، فكلودين صاحبة طبعٍ حاد، وشخصيةٍ عنيفةٍ وأنانيةٍ، ومن الصعب ترويضها، ولا تقبل أو تتقبل أنْ يقاسمها جورجي النفوذ أو السيطرة على المنزل أو الأسرة.

كما أنها كانت تحبُّ الصخب والأصوات العالية والمشاجرات، ومنذ أعوامٍ طويلةٍ مضت، لم تعد تعتبر أنَّ جورجي هو الشخص الذي يستطيع رعاية الأسرة، فهو فقط ــ برأيها ــ يستطيع أنْ يذهب إلى الفندق، ويقضي وقتاً طويلاً، ويعود عند الفجر لمنزله ثملاً

حيناً و نصف ثملٍ حيناً أخر، وأن يوفر المال اللازم لحياةٍ عاديةٍ تعيشها العائلة. ولكن لا أحدَ ــ في البيت ــ يرى أنَّ جورجي أكثر من ذلك الشخص الذي يؤمّن مصاريف المنزل.

ومنذ عدة سنواتٍ مضت، اكتشفت كلودين أنَّ جورجي على علاقة بنساءٍ أخريات، لكنها أرادت أن تحافظ على سمعة بيتها، وعلى أسرتها من التفكك، فتغاضت عن الأمر ولم تحرك ساكناً طوال تلك الأيام، ما عدا بعض الأحداث التي حصلت عندما وصلت الوقاحة بجورجي للخيانة العلنية، كتلك الحادثة التي استغلّ بهاَ وجود الأسرة في مكان ما بمنطقةٍ بعيدة، وجاء بعشيقته إلى المنزل، حينها اكتشفت كلودين خيانة جورجي من خلال منشفة الحمام، فرائحة عطر عشيقته كانت تفوح من المنشفة.

يومها كاد صراخها يصل إلى السماء، وفتحت له دفتر التاريخ دفعةً واحدةً:

-«هل تظن نفسك ذكياً أيها التافه؟ تأتي بعاهرةٍ إلى بيتي بكلِّ وقاحة، والله، لولا إحسان أبي وإخوتي كنّا اليوم لا نزال نستأجر القبو عند إلياس المكاري، أتظنُّ نفسك رجلاً!؟ فهذا البيت الذي نعيش فيه الآن لم تبنِ حجراً في جدرانه من أموالك، لقد كنت بالكاد تؤمّن لنا مصروفنا اليومي، وفي النهاية تصل بكَ النذالة أنْ تأتي بعاهرةٍ إلى المكان الذي أشعِلُ به البخور يومياً، وأصلّي ليظلَّ الربُّ حامياً لأولادنا، وأنت تحوّل بيتي إلى مبغى».

يقول جورجي:

-«أرجوكِ دعيني أشرحُ لكِ... ».

لكنها تقاطعه صارخةً:

-«اسمعْ جورجي، لقد اعتبرتُ نفسي أرملةً منذ الأشهر الأولى من إكليلنا، وتمنيت لو بقيت في منزل والدي دون زواجٍ، على الأقل لن أضطرَّ لتحمل تفاهةِ أحدٍ، ولا نفاقِ أحدٍ، ولا ضعف أحدٍ، وكنت بقيت حرةً، وكرامتي مصانةٌ. اسمع جورجي، إنَّ الشيء الوحيد الذي فعلته في حياتنا أنك استطعت إنجاب الأولاد، تلك كانت بطولتكَ الوحيدة، إياك الظن أنَّ إنجاب طفل يحتاج لمهارةٍ أو يعتبر إنجازاً، فالقطط والكلاب وكل الكائنات ــ والحشرات حتى ــ تستطيع أن تنجب أولاداً».

فيحاول جورجي الكلام قبل أن تقاطعه كلودين:

-«أرجوك كلودين لا تكوني قاسيةً معي، دعيني أشرح لك...».

- «اسمع جورجي، تستطيع أن تنام مع أية عاهرةٍ تريد، وتستطيع أنْ تبقى طوال الوقت خارج المنزل، سيكون ذلك رائعاً، ولكن إياك أن تفكر أن تقترب بخطاياك إلى بيتي، البلد مليئة ببيوت الدعارة ولكن كرامة الأولاد... سأصمت وأتجاهل ما حصل لكي لا يقال لهم إن أباكم رجلٌ فاسقٌ».

- «أرجوك كلودين دعيني أشرح لك فقط...».

- «لا أريد أن تشرح شيئاً، اسمع جورجي، سأغفر لك أنك أتيت بعاهرةٍ ونمت معها في فراشي، سأغفر أنكما أخذتما حماماً ساخناً سويةً في حمام بيتي، ولكن ما لا أستطيع غفرانه أن تسمح لها أن تستخدم منشفة حمامي الخاصة، هذا ما لا أستطيع تحمله. كن رجلاً مرةً واحدةً واشترِ منشفةً لعاهراتك يا رجل».

حينها صمت جورجي نهائياً، فلم يكن يمتلك الإجابة عن أي سؤالٍ، وسيمتدُّ هذا الصمت وقتاً طويلاً قد يصل إلى عشرين عاماً، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم، سيهدي جورجي كل امرأة سيتعرف عليها منشفةً، وسيبقيها بعيدةً عن منزله، أمَّا كلودين فسيشتري لها أحدُ ما منشفة، بعد أن يقنعها بأن أمَّه مسيحية وأباه مسلمٌ، وعندها ستقبل كلودين هديته وستعتبر أنَّ علاقتها بذلك الشخص لن تحدث أي خطر ديموغرافي، ولن تشكِّل أيَّ استفزاز للرب...

لكنَّ ألفيرا لن تستخدم المنشفة هذه الليلة، فجورجي لا يعلم لماذا حصل معه ما حصل، وهي لا تعلم أيضاً، فقد كانت الأسئلة كثيرةً جداً والإجابات غير مرئيةٍ، فليس هناك أي شيء جديدٍ يستحق الذكر، فكعادته، تناول جورجي الحبَّة الزرقاء وشرب زجاجة سعة سبعمائة سنتليتر من مشروب الطاقة المفضل لديه، ولكنه لم يستطع أن يفعل أيَّ شيء.

شعر جورجي حينها بالبرد والتشنج وضيق التنفس، وبالكثير من الصداع، ولم يشعر بأدنى حاجة جنسية، فقد كان يحسُّ في داخله

أنه كئيبٌ جداً ومحبطٌ، وأخذ البرد يتسلل إلى داخل عظامه، وكأن روحه بادرة وكأن جسد ألفيرا المتعري أمامه أصبح مثل جثة.

لم يكن يريد الكلام، أخذ يتذكر طفولته ويرتدي ثيابه ببطء، أما ألفيرا فقد كانت مصابة بالصدمة لم تفهم سبب ما يحدث ولم تحاول التفوه بكلمة واحدة، بقيت صامتة كانت تعلم أن جورجي غريب الأطوار هذه الليلة وقد خشيت أن تكون هي السبب، فاقتربت منه وأخذت تدلك له رقبته وتقول بصوت هامس: «ربما أنت مستاء من وضع العمل في الفندق وربما لديك أسباب أخرى. دعنا نحضر فيلم السهرة سمعت أنطوانيت تتكلم عنه أنه رومانسي جداً». فهز برأسه موافقاً ثم أخفض رأسه نحو الأرض بعد حين بدأ يشعر بالإعياء وبألم في أعلى معدته لكنه لم يفصح عنه، غير أن ألفيرا عرفت ذلك أخيراً عندما بدأ يتقيأ وهو في الحمام حيث كان العرق البارد يتصبب من كل أنحاء جسده وأخذ يقول: «أنا لست على ما يرام اطلبي لي تاكسي سأذهب إلى البيت». فقالت ألفيرا: «انتظر قليلاً بعد ساعة من الآن ستأتي أنطوانيت من الفندق». فقال جورجي: «أخبريهم أنني لن أعمل الليلة». وعندما جاء صفوان وأنطوانيت أخذوه إلى منزله وكان متعباً جداً وقلبه يدق بسرعة والعرق البارد يتصبب من جسده، تفتح كلودين الباب حيث لم تكن تنتظر جورجي لكن الحظ لم يحالف أحداً تلك الليلة، خصوصاً بعد أن قررت ألفيرا أن تبقى

أيضاً في المنزل وتعتذر عن الذهاب إلى الفندق على الرغم من أنها كانت تنام مع صفوان في شقة واحدة وأن تسمع صوته في الليل من الغرفة المجاورة.

أم حنا

جلس نديم أمام البحر وأخذ ينظر إلى الأفق، للجهة الغربية من العالم، حيث كان يعتقد أنه هناك يستطيع أن يجد اللون الأخضر للحياة، فالحياة هنا بلا ألوان، يابسة هي الحياة هنا كما كان يعتقد نديم.

كان لدى هذا الرجل أحلامٌ كثيرةٌ، وخرائط ومشاريع، ومخططاتٍ تحتاج لكتيبة من الرجال لتنفيذها، وكانت أبرز مشكلاته في هذه الحياة أنَّه لا يعرف وضع الحدود بين الواقع والخيال، وبين المتمنى والموجود، وبين الممكن والمستحيل، فمنذ طفولته تخيَّل أنَّه باستطاعته خرق جدار الحياة وتغيير العالم بالمنطق، واكتشف فيما بعد أنَّ المنطق أسوأ ما يمكن أنْ نقدمه للعالم الذي يمشي بلا قانون. فتشابكت أحلامه مع قدراته فكان شجاعاً في اختيار الطرق الأشدِّ وعورةً

كان نديم رجلًا مسالماً ومتزناً، لكن الواقع الحالي في البلاد جعله يخرج ليبحث عن حياة أخرى أكثر أماناً، ويستطيع من خلالها العيش بكرامة والعمل بشكلٍ طبيعيٍ بعيداً عن الحرب والموت والدمار. وفي منتصف الأحلام كانت الحياة تدير ظهرها

لـه، وتخذلـه الوقائـع، فهـذا الشـخص الـذي كان مـن المفـترض أن يكـون مجـازاً مـن كليـة العلـوم الإنسـانية، قسـم التاريـخ، رفضـت الحيـاة أنْ تعطيـه أيـة إجـازة، فاضطُّر لـترك الدراسـة، وعمـل أعـمالاً حـرة إلى حـين اقتنـع أن الهجـرة هـي الحـلُّ الأكثـر منطقيـةً. فالبـلاد في حالـة حـرب، وتبـدو الأمـور أكثـر صعوبـةً، وقـد سـنحت لـه الفرصـة بالخـروج إلى لبنـان المجـاور، برفقـة صديقـه القديـم صفـوان، حيـث تعرفـا هنـاك عـلى عـماد الـذي كان يبحـث عـن شركاء يتقاسـم معهـم الإيجـار الشـهري للغرفـة في منـزل أم حنـا المخالـف في أحـد الأحيـاء الشـعبية المكتظـة في بـيروت.

لم تكـن بـيروت بنظـر نديـم مجـرد مدينـة، بـل كانـت أكثـر مـن ذلك خصوصـاً أنهـا المدينـة الأكثـر أمنـاً في المحيـط الملتهـب، الـذي تتناهشـه القـوى الدوليـة، كـما أنهـا مدينـة دافئـة تحـترم التعـدد والثقافـات الأخـرى ويمكـن للإنسـان فيهـا البحـث عـن عمـل والعيـش بكرامـة رغـم بعـض الدعـوات العنصريـة التـي كانـت تواجـه الفاريـن مـن الحـرب، لكـن بـيروت بقيـت وفيـة، فـلاذ بهـا مئـات آلاف الهاربـين من الجحيـم المجـاور، واسـتطاع نديـم إيجـاد عمـل خـلال فترة بسـيطة وكان عمـلاً جميـلاً في إحـدى المكتبـات الكبـيرة، حيـث عمـل عـلى توصيـل الكتـب والصحـف والمجـلات إلى بـيروت وضواحيهـا. ونتيجـة هـذا العمـل اسـتطاع أن يشـترك في الإيجـار الشـهري للغرفـة المكتظـة عنـد أم حنـا، التـي كانـت تعمـل سـابقاً ممرضـةً في أحـد المستشـفيات الفرنسـية أثنـاء الحـرب الأهليـة، وبعـد أكثـر مـن ثلاثـين عامـاً عـلى إصابتهـا أثنـاء

الاجتياح الإسرائيلي للبنان، تحولت إلى امرأةٍ ثرثارةٍ وعاجزة، لكن الحياة أعطتها الخبرة اللازمة لتبقى حية.

كانت تجلس يومياً على شرفة منزلها القريبة من الشارع، والتي تستطيع من خلالها التكلم مع المارة، فتتكلم معهم حول كل شيءٍ بغية تبديد الوحدة التي كانت تعيشها بعد غياب زوجها طوني، ومغادرة أبنائها البلاد، لتبقى وحيدةً تعيش من الريع الشهري للغرف التي تؤجرها بعد أن قسمت منزلها إلى عدة غرفٍ، ومع الوقت وتراكم الأجرة الشهرية ونتيجة بخلها الشديد تحولت إلى امرأة تملك مبالغ كبيرة تتزايد باستمرار مع كل آخر شهر، فضلاً عن المساعدات التي كانت تأتيها من الكنيسة، حيث كانت تدعي دوماً الفقر والعوز وضيق الحال، وقد أعطتها الحياة الخبرة اللازمة والكافية للمحافظة على مواردها والعيش بقوانين شدٍّ الحزام واستغلال المستأجرين لديها لخدمتها مجاناً، فقد كانت امرأةً تستغلُّ كل شيء تستطيع استغلاله لاسيما تلك الشرفة القريبة من الشارع التي طالما كانت تتمنى لو كانت أكثر انخفاضاً لتستطيع عرض البضائع وبيعها، فشرفتها كانت تعلو عن الشارع بحوالي مترين فقط، وكان الشارع ضيقاً ومن الصعب مرور السيارات ويعجُ بالبائعين والبضائع والمارة، وبعد أن عرض عليها ذلك المستأجر السوري عماد ذلك المشروع، أخذتها أحلام اليقظة إلى أماكن بعيدة، فبدأت تفكر جدياً في ربط البضاعة بحبل وإسقاطها ليستطيع الزبائن أخذها، وهنا بدأت لديها مشكلة جديدة، تتجلى بخوفها من أن يأخذ الزبائن البضائع ويهربون دون أن يدفعوا المال

لها، فقد أعطتها الحياة الخبرة اللازمة لكي لا تخسر أموالها، فمعظم الباعة المتجولين في هذا الحي سوريون ولبنانيون وفلسطينيون، والسوريون واللبنانيون والفلسطينيون نصّابون، كما كانت تقول، وهي عاجزة أن تلاحق أحداً منهم أو أن تطلب المساعدة من أحدٍ في حال تمت سرقتها، خصوصاً أن شارعاً مزدحماً ويعج بالأصوات والحركة والصراخ من الصعب أن يسمعها به أحد، عندها فقط رأت أن عليها أن تتكلم إلى ذلك المستأجر السوري الذي لم تتأكد بعد إن كان مسيحياً أو درزياً، لكنها كانت واثقةً أنَّه أحد الخيارين، فقد أعطتها الحياة الخبرة اللازمة والكافية لمعرفة أبناء الطوائف المختلفة من خلال طريقة تفكيرهم، فمثل هذه الفكرة الجهنمية بتحويل شرفة منزلها إلى دكان، لن تخطر في بال إلّا من يعرف الله معرفةً سطحية.

كانت تراودها هذه الأفكار تضحك، ثم تصرخ على أحد المستأجرين وتقول:

- «ولك انتا هيه... مجيد، حميد، وليد. لعن الله ذاكرتي لم أعد أتذكر اسمك، ألمْ تقل لي اسمك البارحة؟».

- «السلام عليك أم حنا أنا اسمي فريد ألا تذكرين؟».

تتمتم بكلام لا يستطيع سماعه، وتقول هامسةً:

- «الله لا يسلم فيك ولا عظمة».

ثم ترفع صوتها وتقول:

- «ولك ابني، ألمْ تر اليوم المستأجر السوري الذي يستأجر الغرفة التي بجانب المرحاض؟» فيسألها: «هل تقصدين نديماً؟».

تقول بكلامٍ لا يستطيع سماعه أيضاً:

- «لا، أقصد ابن الحرام الثاني».

ثم ترفع صوتها وتقول:

- «لا يا بني، أقصد الشاب الآخر السمين، أظن أنّ اسمه جهاد، سليم، لم أعد أستطيع تذكر اسمه، قال لي اسمه البارحة، ولكني نسيت».

فيسألها: «هل تقصدين عماد؟».

فتمتم بكلمات لن يستطيع فريد سماعها وتقول:

- «نعم، أقصد جهاد أو سليم أو مصطفى أو... لعن الله العجائز وعيشتهن، عماد نعم، أقصد عماد».

ثم يعلو صوتها وتقول:

- «إذا رأيته قل له أم حنا تريد رؤيتك، لا تنسَ يا وليد».

فينظر إليها فريد ويعبس في وجهها ثم يقول:

- «تكرم عيونك أم حنا».

فتفكر في نفسها وتتمنى أن يأتي جهاد أو سليم أو مصطفى، لا تتذكر ماذا قال لها بالضبط ذلك الشاب الذي عبس في وجهها،

ولم تعلم لماذا عبس في وجهها ولم تتأثر، فالغرباء غريبو الأطوار، وقد أعطتها الحياة الخبرة اللازمة للتعامل مع الغرباء، لكن أم حنا لن ترى عماد مهما كان اسمه، لأنه الآن يجري مقابلةً للعمل في الفندق الذي يعمل به صفوان بديلاً عن جورجي الذي بدوره سيضطر للبقاء في المنزل مدة طويلةً بعد أن اكتشف أنه مريض بالقلب وبحاجةٍ للراحة فترة طويلةً قبل إجراء عمليةٍ لفتح الشرايين.

عماد

كانت هموم عماد متركزةً على الحصول على الحد الأقصى من الفائدة من عمله الجديد، بعد أن أخبره صفوان أن جورجي كان يستطيع أن يحصل على ضعف راتبه من البقشيش والإكراميات التي كانت الزبائن تدفعها، فحاول عماد بعد أن بدأ يعمل نادلاً مكان جورجي في الصالة أن يستفيد بطريقةٍ احترافيةٍ، خصوصاً أنه كان يملك خبرةً في ابتزاز الزبائن لدفع المال مقابل الخدمات المجانية. ومع الأيام الأولى من عمله حاز على رضى مدير الصالة، خصوصاً أنَّه كان يعرف كيف يتكلم مع الزبائن بشكلٍ لائقٍ، وكان هدفه الدائم والوحيد هو أن يجني المال ولا شيء غير المال، حتى ولو كانت الطريقة رخيصةً أو بها انتقاصٌ من كرامته.

وفعلاً أصبح كالمنشار يأخذ من جميع الزبائن، ولا ينتبه بحالٍ من الأحوال للانتقادات التي يوجهها زملاؤه إليه، حيث إنَّه كان مقتنعاً أنها ستكون غزوة لفترةٍ وجيزةٍ وسينتهي كل شيء، وسيترك العمل حين سيعود جورجي، وسيسافر ليصل ألمانيا، وسيعوض المال الذي يظن أنه تمت سرقته من قبل أبي طارق.

وقد عمل على مضاعفة ساعات دوامه ليعمل ورديتين،

واستطاع أن يقنع المدير لإعطائه سريراً في غرفة العمال، لأنه ليس لديه بيتٌ في جونيه، وكذلك حصل فعلاً، حتى بدأت سلسلة من التغيرات في مواعيد دوام العاملين في الفندق، فانتقلت ألفيرا للعمل معه في الصالة، وهنا بدأ كل شيءٍ يتغير في حياة عماد وألفيرا معاً، وطال هذا التغير أيضاً كلاً من إنطوانيت وصفوان بعد أن استشعرا العلاقة الحميمة التي بدأت تظهر على عماد وألفيرا، وكانت أنطوانيت مرتاحةً لهذه العلاقة الجديدة التي بدأت نتائجها تظهر بشكل مباشر على ألفيرا.

حيث بدأت ألفيرا تشتري (المكياجات) غالية الثمن، والألبسة القصيرة والمثيرة، ولم تعد تتكلم عن يسوع ومريم، وأخذت تبحث في الإنترنت عن خلطاتٍ مغذيةٍ للبشرة ولشدِّ الوجه، وألغت متابعة الصفحات الدينية على الفيس بوك، حتى إنها هذا الأحد أخبرت أنطوانيت أنها لن تذهب للصلاةِ بكنيسة (القديسة) التي لم تقطع زيارتها لها أيام الآحاد سابقاً حتى في أوقات مرضها الشديد.

كما أنَّ أنطوانيت لم تستطع فهمَ هذا التغيير الجذريّ والسريع في حياة ألفيرا، ولكنها كانت تنظر إلى هذا التغيير بإيجابيةٍ وتشعر أنَّ ألفيرا أصبحت مرحةً وغير كئيبةٍ كما في السابق، كما أنَّها لم تعد تتكلَّم عن صفوان أو تنتقد علاقة أنطوانيت به. خصوصاً أن عماد ليس مسيحياً أيضاً. وكانت أنطوانيت مقتنعةً تماماً أنَّ عماد يقضي هذه الأيام، الليل كاملاً مع ألفيرا في سريرٍ واحدٍ.

ولم يفاجئها كلام ألفيرا التمهيديُّ حول موضوع السكن المشترك، وأن عليهما أن تأخذا شقةً أكبر من الشقة الحالية ليستأجر معهما عماد وصفوان ويتشاركوا أعباء المنزل سويةً.

وبالتأكيد لم تكن أنطوانيت مستاءةً من هذا العرض، خصوصاً أنَّها تستطيع بذلك أن تضمن حياةً مستقرةً أكثر مع عشيقها، بدون مضايقاتٍ سريةٍ أو علنيةٍ أو محاولات ابتزازٍ من جهة ألفيرا. ولكن الذي لم تفهمه أنطوانيت أن هذه الخطة، هي أولُى مكتسبات عماد من علاقته بألفيرا، وهو الذي كان يرى فيها ورقة يانصيبٍ رابحةٍ، ستخففُ عنه الكثير من المصاريف، وسيعاشرها دون أن يدفع أي دولارٍ، وستكون الخطوة الأولى من الخطة التي ستنكشف تباعاً، والتي أحكم فصولها عماد، ورأى أنها فرصةٌ من الله لن تتكرر، ليستطيع بذلك تعويض المبلغ الكبير الذي يظنُّ أنَّ أبا طارق احتال عليهم به نتيجة غباء صفوان وقلة حيلته، على أيِّ حالٍ، سيجتمع الأربعة الليلة على طاولةٍ واحدةٍ، وسيطفئون العام التاسع والأربعين لألفيرا، العام التاسع والأربعين الذي أشعله عماد، وأشعل كل الأعوام التي سبقته والتي ستأتي بعده، لكن الفرق أن كلَّ الدفء الآن سيتحول إلى شيءٍ آخرٍ بعد حين.

نديم

بعد كل الإطراء الذي كان يسمعهُ الأستاذ شوقي من الزبائن بما يخصُّ نديم، قرر أن يعرض عليه العمل الدائم داخل المكتبة، فنديم كان دمثاً ولطيفاً بالتعامل مع الزبائن، وكان كثيرٌ من الزبائن يتخذونه دليلاً في القراءة، حيث كان يعرف أفضل الكتب والكتَّاب حول أيِّ موضوعٍ، وكان بطبيعته قارئاً ذكياً ونهماً، ولديه حِسٌ نقديٌّ لما يقرأ، ويضع غالباً تقييماتٍ وتكون دقيقةً للكتب والكتَّاب في المكتبة.

ولذلك قرَّر الأستاذ شوقي عرضَ راتبٍ مضاعفٍ عليه، غير أنَّه فوجئ برفضه، حيث كان نديم سعيداً بطبيعةِ عمله الحر خارجَ المكتبة، وقد أبدى الأستاذ شوقي تفهمه لذلك، وقال له إنَّ هذا العرض مفتوح، وإنه يستطيع حينما يشاء أن يعمل داخل المكتبة الكائنة في أحد أهمِّ شوارع بيروت العريقة.

أصبح نديم ـ مع الوقت ـ خبيراً بالأماكن والعناوين والزبائن، واعتاد على العمل واعتادت عليه الزبائن، وكان عملهُ مثيراً وفيه دوماً شيءٌ جديدٌ كلَ يوم، وتعرف من خلال هذا العمل على عدة مثقفين وكتابٍ ونقادٍ وصحفيين. وكان يوصل الكتب من المكتبة إلى طالبيها خلال مدةٍ محددة.

ومنذ أن بقي وحده في غرفة أم حنا، بعد أن ذهب عماد للعمل مع صفوان في جونيه، تحولت حياته إلى حياةٍ هادئةٍ وجميلة، وعرف نديم أنَّ الوحدة أفضل صديقٍ في الزمن الرديء، وصار باستطاعتهِ أن يسمع فيروز دائماً في الليل، وأنْ يسهر لوقتٍ متأخرٍ دون إزعاجٍ، وأن يتصرف بحريةٍ مطلقة، وأن يفتح بعضَ الكتب التي لم يستطع إيصالها وقراءة شيء منها، ومع الوقت صارت له علاقاتٌ جيدةٌ بزبائن المكتبة، حيث إنهم بدأوا يثقون به ويوصونه على بعض الكتب التي كانت غير متوفرة، فيقوم بجهودٍ خاصةٍ للحصول عليها عندما لا تتوفر بمكتبة شوقي.

كان نديم أميناً في البحث عن الكتب التي يكون من الصعب الحصول عليها لندرتها أو لقيمتها. وحين تعمقت علاقته بالمثقفين، أصبح وسيطاً نزيهاً يعمل على إيجاد الكتب في مكتبات الزبائن. نال نديم احترام العاملين بالمكتبة وحبَّهم، ولكنه كان على يقين أن عملهُ بالمكتبة ليس إلّا مرحلةً قصيرةً وستمرُّ، فحدسه الذي لا يخطئ يقول له إنَّ موعد السفينة قريبٌ جداً.

أمَّا منال التي كانت تعمل معه في مكتبة شوقي، فلم يكن نديم مجرد زميل في عمل بالنسبة لها، بل أخذ يصبح مع الوقت حلماً ورديا، وأمنيةً في موسمها، وكلُّ الرسائل التي كانت تضعها في جعبة دراجتهِ النارية التي كان يوزع الكتب من خلالها تثبت ذلك.

لكن نديم كان يملك رؤية خاصةً في الحب، فيراه انغماساً

وامتلاكاً وانتماءً وتجذُّراً، فكيف للهاربين من انتمائهم وجذورهم أن يعشقوا؟؟، كما أنَّه كان من مؤيدي المقولة المشهورة «لن أتزوج لأتباهى أمام مكاتب الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بسلالتي النادرة».

قد تحزن منال كما كان يظنُّ عند رحيله لبضعة أيام، ثم سيصبح ذكرى ثقيلةَ الظل في حياتها، فهي لا تحبه لصفاتهِ فقط، بل لأنها تريد أن تحبْ، وتكتبَ وتعشقَ وتعيشَ الحكايات التي كانت تعرضها الدراما، والتي لا توجد إلّا على الشاشات التلفزيونية.

أما على شاشة الحياة فمسلسل واحدٌ هو المعروض دون فواصل إعلانية وهو مسلسل المأساة. وقد كان نديم مقتنعاً أيضاً أن أكثر من سيكون حزيناً حين سيسافر هو شوقي، الذي أصبح يعتمد عليه في شراء الكتب والبضائع للمكتبة، وأخذ يقنعهُ بالبقاء واستلام إدارة المكتبة، بعد انشغال شوقي بزوجته التي تحتضر نتيجة مرض السرطان، وعدم قدرتهِ على العمل كما في السابق والالتزام بالمكتبة.

كما أنَّ هناك من يظنُّ أنها ستحزن لغيابهِ أيضاً، وهي أم حنا تلك العجوز الذي لن ترضى أن تخرج خاسرةً من معركة غيابه...

الفصل الثاني

الانتظار

التأشيرة

على غير عادةٍ، بعد أن اقتنع الثلاثة الذين كانوا يجلسون في مقهى أبو شبك، بعدم جدوى الانتظار، أطلَّ أبو طارق عليهم رغم تأخره وفقدانهم الأمل بمجيئهِ، لكنه قلب طاولة التوقعات وطاولة العادات، وجاء يحمل في يده مصنفاً فيه كثيرٌ من الأوراق التي ستغير كثيراً من خرائط حياتهم.

يجلسُ على طاولتهم وهو مبتسمٌ، وعلامات وجهه تفضح الكلام الذي يودُ أن يقوله، ويبدأ بالكلام:

«ولك حبيبي عمك أبو طارق لا يقول شيئاً ولا يلتزم به، لقد وعدتكم ووفيت بوعدي، هذه هي جوازات سفر بحريةٍ ثلاث، وتأشيرة دخولٍ مفتوحةٍ إلى تركيا، لكنكم لن تستخدموها إلّا عند الضرورة.

ستخرجون من الميناء على متن سفينة نقلٍ بحرية، وستدخلون تركيا على أنكم عمالٌ على ظهرِ السفينة، وهناك أشخاصٌ ستؤمن لكم بيتاً في مرمريس، وستبقون بهِ ريثما تجدون مجموعةٌ تعبرون معها إلى جزيرة رودس اليونانية عبر القوارب المطاطية، أمَّا عمكم أبا طارق فمهمته معكم تنتهي هنا، أما في تركيا فهناك موسى

بوشكاش، وستتصلون به عندما تنزلون من السفينة وهو من سيأخذكم إلى المنزل الذي ستقيمون به (لكان عمي) فالرحلة مع أبي طارق مضمونةٌ، فالأتراك كما تعلمون (أخوات شليتي) وقتل الرجل عندهم مثل...».

عندها يقاطعه نديم ويقول:

- «قتل الرجل عندهم مثل احتساء كوب الشراب».

فيقاطعه صفوان ويقول:

- «لاااا !! بل قتل الرجل عندهم مثل احتساء فنجان كابتشينو».

فيقاطع عماد الجميع متهكماً:

- «لقد قلت لنا إننا لن ندفع أي مبالغ في تركيا، فالإقامة هناك من ضمن الأموال التي أخذتها منا، أليس كذلك!؟».

عندها يقف أبو طارق ويضع يديه على الطاولة، وتظهر على وجهه علاماتُ الغضب ويقول:

- «(ولك عمي) ماذا تظن!؟ هل تعتقدُ أنني سأصرف عليكم مدى الحياة وأنتم داخل تركيا؟ (ولك عمي) أنا لست ساحراً، أستطيع تأمين منزلٍ لكم في ضواحي مرمريس، أمَّا إذا كنت تريد الإقامة في فنادق خمس نجوم، فعمك أبا طارق ليس مسؤولاً، ومرمريس مليئةٌ باللاجئين السوريين والعراقيين والعرب، وستبقون فيها أسبوعاً أو أكثر قليلاً، ريثما تستطيعون

إيجاد مجموعةٍ لتعبروا معها إلى اليونان، إنها ليست مسألةً بسيطةً، إنَّكم تدخلون الجنة من بابها الخلفي (ولك حبيبي)».

فيرد عليه عماد:

- «لكنك وعدتنا أننا سنأكل الكباب في شوارع مرمريس».

ويسود الصمت، وينظر الجميع إلى وجوه بعضهم البعض، فيضيف عماد مرةً أخرى ويوجه كلامه إلى أبي طارق:

- «نعم يا أبا طارق (الكباب)، ولكن على حسابك».

فيرد أبو طارق صارخاً:

- «(ولك حبيبي) أنا سمسار مكتب نقلٍ بحريّ ولستُ شيف مطبخ، وأول مرةٍ أسمع أن لاجئاً يريد أن يأكل الكباب، على أيِّ حال، الأسعار في مرمريس رخيصةٌ قياساً بهذه البلاد اللعينة، وعليكم أن تجهزوا أنفسكم بعد شهرين من الآن تقريباً، فالسفينة ستصل إلى الميناء وتبقى ثلاثة أيام هنا، ثم تنطلق إلى تركيا، لم أسألكم، ماذا ستقدمون لنا (حلوان) التأشيرة؟».

فيرد عماد:

- «لا شيء، فأنت يجب أن تقدم لنا، لقد أخَّرتنا أشهراً عن السفر».

لكن صفوان كان يريد أن ينهي النقاش، بعدما شعر بالارتياح حينما انتهت الأمورُ لصالحهم، حيثُ كان يشعرُ في الفترة الماضية

بالذنب اتجاه عماد ونديم، ويشعر أنه ورطهم مع أبي طارق، فيقول صفوان:

- «اطلب ما تشاء على حسابي، أبا طارق».

فيبتسم أبو طارق ابتسامة المنتصر، ويقول:

- «اطلب لي أركيلة وشاياً، أريد أنْ أتبول أيضاً».

فيرد صفوان:

- «أنا أيضاً».

فيقومان ويلحقهما عماد الذي كان يخشى من الأحاديث الجانبية، فهو لا يثق بأحدٍ، وكان يخشى أن يتفقا عليه.

السماء ليست زرقاء

اتفق عماد وصفوان ألّا يخبرا أحداً بقصة هجرتهما، وخصوصاً ألفيرا وأنطوانيت، لأنهما كانا يعتقدان، بل كان عماد يعتقدُ وأقنع صفوان لاحقاً، أنهما بإعلانهما أنهما سيهاجران قريباً، سيفتحان على نفسيهما أبواب جهنم، وستبدأ كلٌّ من ألفيرا وأنطوانيت بالبحث عن غيرهما.

وعلى الرغم من كل الخلافات بين ألفيرا وأنطوانيت غير أنهما توافقتا أخيراً أن يعيشا ما يشبه المساكنة مع عماد وصفوان، وعندما بدأت علاقة ألفيرا بعماد، بدأت الأمور تأخذ شكلاً أبسط وأجمل في حياة أنطوانيت، حيث ارتاحت من ثرثرة ألفيرا، وأصبح صفوان يدخل ويخرج متى يشاء بل ولازم أنطوانيت في البيت والعمل، وبالمقابل تلازمت ألفيرا وعماد أيضاً، العمل والبيت وتوثقت علاقتهما كثيراً، وبدأت ألفيرا ترسم مخططاتٍ مستقبليةٍ لعلاقتها مع عماد، وتبحث عن الطريقة التي تبقيه بها دوماً. وبدأت تخططُ لشراء منزلٍ بالتقسيط في أحد ضواحي المدينة عن طريق جمعية سكنية، بعد أن أقنعها عماد أن الإيجار الشهري للشقة قد يكون قسطاً للمنزل، واقتنعت بذلك فعلاً.

كانت ألفيرا تعمل بقسم المحاسبة في الفندق، وكانت تجني كثيراً من المال، ومنذ تعرفت على عماد، تأثرت به وبطريقة حياتهِ وتفكيره وإدارته لموارد حياته بحرفية، ولكن مع الوقت والقرب الحاصل بينهما أخذ عماد يؤثر على ألفيرا بكل تفاصيل حياتها، ويخطط لها بما يخدم مصالحه وأهدافه، واستطاع إقناعها في وقت قصير بكثيرٍ من الأمور التي تسهل له حياته، كإقناعها بتقاسم الإيجار الشهري للشقة بينهم الأربعة، ثم بدأت ألفيرا تدفع عنه الإيجار، واشترت له جهاز هاتف خليوي جديداً، وكانت تذهب معه إلى أماكن للترفيه وتدفع هي، خصوصاً بعد أن بدأت وعوده لها بالحياة المشتركة، وإيهامها بحبه لها، حيث كان من الأشخاص البارعين بالكلام والتفلسف والقدرة على الإقناع، ولديه قدراتٍ خطابيةٌ ولغويةٌ مميزة، لكن كل شيءٍ كان نفاقاً، فلم يكن عماد رجلاً يسمح لقلبه أن يملي عليه شروطاً، فلديه طريقٌ واحدٌ يمشي به، وكل شيءٍ في حياته هو لخدمة هذه الخطوة، فهو لم يكن من الذين يحلمون بامرأةٍ وأسرةٍ وحياةٍ مستقرة، بل كان شخصاً قلقاً دوماً، يفكر دائماً بالعمل والكسب، ويخطط في سبيل تجميع المال، والمفارقة كانت أن كل الذين يلتقي بهم كانوا عكس ذلك، باستثناء أبا طارق الذي كان يعتبر أول شخصٍ يستطيع أن يأخذ مالاً من عماد دون ضمانات، وكانت تلك الفترة من حياة عماد، فترة رعبٍ وكآبةٍ لخوفه أن يخسر أمواله التي أعطاها لأبي طارق، فخسارة اللحم تُعَوَّض أما خسارة المال بالنسبة لعماد قد تشكل له عاهةً مستدامة وعلةً أبدية، ولكنَّ كلَ شيءٍ سيكون على ما يرام. سيخطط عماد للرحيل بصمتٍ وبشكلٍ مفاجئ، وسيفعل

ذلك صفوان أيضاً، لكنَّ كلاً منهما له غاياته، فصفوان الذي تعمقت علاقته بأنطوانيت سيجد في إخبارها عن اقتراب موعد الهجرة أمراً سيعقد من رحلته، وسيفقده الحرية التي قد يتمتع بها حينما سيكون غير مرتبطٍ بأحد.

أما عماد فلن يستطيع إقناع ألفيرا أيضاً بهجرته بعد كل الكلام المعسول والعواطف الجياشة واللحظات الحميمة، والوعود والعهود بالبقاء حتى آخر لحظة ونبض، ورغم دهائه لن يستطيع أن يضع لها سلماً لتنزل عن شجرة حبه، وهي التي أعطته كل ما طلب وما لم يطلب، ولكنها طلبت منه ضمانات للبقاء والاستمرار بالحياة معه، فقطع وعوداً على نفسه أمامها أنه لن يتركها طالما لون السماء أزرقُ ولكن لون السماء يتغير!!

اسألوا عماد...

الدلو المثقوب

كانت حياة شوقي بأكملها مخططةً على مخططٍ واضحٍ، بزوايا واضحةٍ وآفاقٍ جلية.

شوقي أستاذ رياضيات سابقٍ في إحدى المدارس المسيحية الخاصة، ومنذ تخصصه بالرياضيات أخذت حياته تتأثَّر باختصاصه فصار يشبه المادة التي يدرِّسها، فبدأ يضع الفرضيات لحياته ويثبتها نظرياً ثم يطبقها، فكان بارعاً في الرياضيات ولكنه فاشلٌ في الحياة، لأنَّ ما يصح في الهندسة والجبر، ليس من الضروري أن يكون صحيحاً في الواقع، ودوماً كانت تصل براهينه إلى طريقٍ مسدودٍ منافيةً المنطق في بلادٍ ومجتمعاتٍ تمشي بعكس المنطق الصحيح للحياة.

كان يعتبر شوقي أنَّ الحياة دائريةٌ، وأننا نصل في نهاياتنا إلى نقطة البداية، حيث لا يوجد ما هو لانهائيّ، فكل شيءٍ في هذه الحياة محدودٌ وقابلٌ للإدراك، وإذا كانت المعطيات صحيحة فالنتائج صحيحة، هذه كانت من أهم القواعد التي بنى عليها شوقي حياته، فكان يُسقِط وحدات القياس حتى على ما هو مجردٌ في الحياة، وحتى عواطفه خضعت لمقاييس دماغه الرياضي، لكن

مرض زوجته بالسرطان وكتاب الكون لكارل ساغان، جعلاه يعيد حساباته في كل شيءٍ.

شاءت الأقدار أن يعمل نديم في مكتبة شوقي في بيروت، في لحظةٍ حرجةٍ من حياة شوقي كان بحاجةٍ بها للابتعاد عن المكتبة، وعن التفاصيل اليومية للعمل، ومشاكل الزبائن والموظفين. وقد وجد في نديم ضالته لتسليمه إدارة المكتبة، بعد أن أثبت نديم تميّزاً في العمل ولباقةً مع الزبائن وثقافة عالية تؤهِّله لمثل هذا العمل.

لكن نديم رفض العرض مبرراً أنه سيهاجر من لبنان في وقتٍ قريب. وهنا ازدادت الجدليات في دماغ شوقي جدليَّةٍ أخرى، فقد كان يقتنع شوقي أنَّه من الخطأ الفادح أن يترك الإنسان بلده، ولكن من الصواب أن يحسن ظروف حياته، فالبلاد لا تتكرر لكن الفرص تتكرر، ومن لديه الموهبة للتميز يستطيع التميز بأكثر أماكن العالم بؤساً، ومن يستحق المال والشهرة والريادة هو من يحمل مواصفاتٍ مختلفةٍ عن الآخرين، ولكن ما يصح نظرياً يمكن أن يكون خطأً في الواقع وكيف لا يكون خطأً والجغرافية واحدة، أما الحدود فهي المتكررة حسب ما كان يجيبه نديم الذي كان يقول له:

- «أنا لا أفهم كيف تتكلَّم عن البقاء في البلاد وأنت كنت أول من نزح أيام الحرب الأهليَّة من بلدك؟ فعن أيّ بقاءٍ تتحدث؟».

- «لكنني عدت إليها».

- «لقد عدتَ لأنكَ محتاجٌ لها وليس لأنَّها محتاجةٌ لك، كما

أنَّ هذه البلاد تضم أكبر (شاليهات) وفنادق على مستوى العالم، لأنها بلادٌ لقضاء إجازةٍ فقط، لذلك يهتم اللصوص الحكوميون في بلادنا بالبنية السياحية للدولة، على حساب تأمين مساكن للناس، فهي بطبيعتها وتاريخها بلاد للسائحين والمغتربين، فلماذا تريد أن تقنعني أن عليَّ أن أجمع الماء في دلو مثقوب؟

فعندما تحتاج البلاد إلى خبراء في أيِّ مجالٍ، لن يسألوا عنا، سيستقدمونهم من الخارج، الخارج الذي نهاجر إليه، فحتى مدربو المنتخبات الرياضية يأتون بهم من الخارج، والأعلام الوطنية وعازفو النشيد الوطني، والوطن والحاكم يأتون بهم من الخارج، فبلادنا هي حديقة الأجنبي فكيف تريد من شعبٍ جائعٍ ومقهورٍ ومضطهدٍ أنْ يبقى ليموت من أجل كراسي حكامه!!؟

وكيف تتكلَّم باسم الجائعين وأنت تتناول عشاءك كل ليلة وتنام!!؟ أستاذ شوقي لن أقتنع بكلامك بما يخص الوطن والبقاء والجوع والحاجة والفقر والطموح، حتى تقوله حين تبحث عن كسرة خبزٍ في بيتك لتطعمها لأطفالك ولا تجدها، أو حين تقضي عمرك في سبيل امتلاك مئة مترٍ مربعٍ كمنزلٍ على سطح الكرة الأرضية، وفجأةً! تغدو ركاماً أمام عينيك، لإن صاروخاً أخطأ وجهته وسقط في بيتك، حينها فقط سأقتنع بما تقول، لا أعرف كيف نملك الشجاعة أن نتحدث عن الانتماء لوطنٍ حكم علينا بالإعدام الميداني، لا لسبب واضحٍ إنما لأننا ننتمي إليه فقط!!!!

هزيمة دافئة

تأخَّر سبع دقائق عن موعد عمله، إنها التاسعة وسبع دقائق ولستُ وحدي في انتظاره، معي زهرةٌ من النارنج سرقتها من حديقة جارتنا، ووعدت الوردة أن ترى وجهه اليوم، لكنه تأخَّرَ سبعَ دقائق. وفنجان قهوته الذي يعرف طعم شفتيه قبلي، ينتظره. وعاتبٌ مثلي على تأخرهِ حتى الآن، ثماني دقائق.

وورقة الروزنامة التي لم يكن لديّ الجرأة أنْ أقتطعها من الروزنامة إلى حين مجيئه، تنتظر أن تتحرر من علاقتها بأيامٍ لا تشبهها، وهي تنتظر يديه اللتين ستقطعان حبل السرة بينها وبين الماضي وبين المستقبل، فهذا يومها الوحيد والنهائي وكل دقيقةٍ تعني الكثير لها، فمن التعسف أن يتركها كل هذا الوقت مصلوبةً على جدار الأمل تنتظر الخلاص.

وعلبة التبغ أيضاً تنتظره...

علبة التبغ التي تقاسمني الشبق تجاه هذا الرجل النقي، تنتظر أن يفكَّ حزامها ويفتح عليها نافذة الوجود، فقلائل هم الرجال الذين يعرفون كيف يختارون تبغهم، وكيف يتعاملون مع شبق

دماغهم، وهو الذي يرى أن التبغ يضرّ الصحة، ولكن يفيد الحياة ويغذي ـ كالطعام تماماً ـ مزاجنا اليومي.

كما أنَّه مقتنعٌ أن كل إنسانٍ يختار من التبغِ ما يقتنع بطعمه، لذلك كان يقتنعُ بسجائر الونستون والتي كان اسمها اختصاراً للأحرف الأولى لعبارة «المرأة لا تكتفي بليلة واحدة»، ومع ذلك تأخر حتى الآن عشر دقائق.

ألا يفهم أن المرأة أيضاً تكرهُ الانتظار؟ وأن المرأة كالسجائر تماماً، ولا يستحسن أن تولعها وتتركها، لأن نارك ستمتدُ بها وتحيلها رماداً؟ ألا يفهم أنني أشعر أن هناكَ كثيراً من الرماد داخلي من وراء ناره؟؟ ألا يعلم أنني خذلت «ديستوفسكي» بعد أن آمنتُ سنواتٍ بمقولته:

(إنني قوي لأنني لا أنتظر أن يحبني أحد)، ألا يعلم كلَّ ذلك؟؟

لقد صلبني قلبي على خشبة انتظارهِ، وخلع عن رأسي تاجَ حريتي وألبسني تاج شوكِ انتظاره، وليس بمقدوري الآن ألّا أنتظر، فالحبُّ هو تلك الهزيمة الدافئة أمام ما يتمرد داخلك عليك، وهو الإذعان المباشر لما تطلب روحك منك، وكل السنوات والأيام والساعات لا قيمة لها، لقد مرَّت وكأننا لم نكن، لكنّ تأخره عشر دقائق أشعل داخلي حرائقَ كحرائق الغابات ليست بحاجةٍ لأفواج إطفاء وفرق دفاعٍ مدني لتخمدها، بل بحاجةٍ لهجومٍ مضادٍ من عقلي، فهو الكفيل الدائم في حياتي أن يخمد كل لحظات

الجنون التي تشتعل داخلي، لكنه منذ سمع صوت نديم أول مرةٍ، صمتَ نهائياً، وكأنه تم اعتقالُه واقتيادهُ إلى جهةٍ مجهولةٍ، ولا أحد يعلم أين هي، ربما كانت بين يدي نديم أو في كلامه، أو ربما في حديقة جارتنا التي كلما رأت أمي تشتكي لها عن الشذاذ الذين يسرقون الورود من حديقتها، و تعتبرهم «بلا عقلٍ» فالورود لا فائدة منها ـ كما تدعي ـ فلا تباع ولا تؤكل.

ليتني أستطيع أن أقول لجارتنا إنني فعلاً «بلا عقل»، وليتني أستطيع أن أقول لها إن الورود التي نسرقها من حديقتها لا تُباع ولا تؤكل فعلاً، ولكننا نحتلُّ من نهوى بها، فالوردة التي تذبل خلال ساعات يمكن أن تحيي قلوباً ماتت منذ سنين طويلة.

لا أحد يحبها

لا أدري أيُّ قدرٍ أحمقَ هذا، فلقد أصبحت محكوماً بأعتى الأحكام التي يواجهها الفرد بالعصر الحديث، وهو أن يتم سجنه في زنزانةٍ واحدةٍ مع أشخاصٍ يتمنى ألّا يلتقي بهم حتى على باب الجنة، لقد منعني الطبيب عن الحركة والجهد والوقوف، وغدوت مضطراً للبقاء في هذا السرير الخشبي الأنيق طيلة اليوم ريثما تتم العملية الجراحية، فأوردتي وشرايني بوضعٍ سيئٍ للغاية،

ولن أستطيع أن أكون قريباً مع ألفيرا، كما أنها لن تستطيع زيارتي فهي تكره كلودين أكثر مني.

فكلودين بطبيعة الحال لا أحد يحبها، لقد أخطأ الرب في خلقها أنثى، فهي ينقصها شاربان وعضوٌ ذكري لتلتحقَ بالجيش، وهي دائمة الصراخ ومزاجها سيئ دائماً، وتتحدث في السياسة أكثر من محرري الجرائد، وتكره الأعمال المنزلية وإعداد الطعام، وتحبُّ متابعة أفلام الرعب والإثارة وسباق السيارات الرياضية ومبارياتِ كرة القدم، كما أنها تحبُّ كل ما يتعلق بالميكانيك والكهرباء والأجهزة الإلكترونية، ولديها خبرةٌ في إصلاحها، كما أنها مهووسةٌ بإصلاح السيارات، حتى صرتُ أشعر أنها تتمنى

أن تتعطل السيارة يومياً حتى تفتح غطاء المحرك وتبدأ بالسباحة بالشحم والزيت، فقد صار لديها خبرةُ ميكانيكيّ في هذا المجال.

ومنذ فترة طويلةٍ بدأت تدخن بشراهةٍ، وتتشاجر مع جاراتها يومياً، وتذهبُ إلى بيت أهلها كثيراً، كما أنها بدأت تتعامل معي باستحقار، وتشعرني بالكثير من الذل لأنني عاجزٌ أن أوفر للأولاد ولها حياةً أفضل، وتنعتني دوماً بالنادل الكئيب، وكيف لا أكون كئيباً وأنا أشعر أنني أعيش مع ضابطٍ في الجيش وليس مع زوجة.

ولكني كنت أفضل ألّا أثيرَ المشاكل معها، كنت أشفق على الأولاد فقد كانوا يشعرونَ بالخوف والارتباك عندما كنا نتشاجرُ أحياناً، حتى إن بطرس ظلَّ يعاني من السلس البولي لفترةٍ طويلةٍ أثناء طفولته الأولى. وكنت على يقين أن إحساسه بخشونة وانفعال أمه كان السبب وراء ذلك، فبطرس يحمل كثيراً من صفاتي فلا يحب الأصواتَ العالية بل ويخافُ منها.

كنت أود لو أسميته اسماً آخر لكنها أصرّتْ أن تسميه على اسم والدها، الذي كان يعمل تاجراً لمواد البناء، ولقد تضرعتُ كثيراً للرب ألا يشبه ابني جده إلّا بالاسم فقط، فجده لم يكن رجلاً فاضلاً ولا شخصاً ذا سمعة حسنة. لقد كان تاجراً لمواد البناء، ومتعهداً للأبنية، وقد لعب الحظ لعبتهُ معه، فعوضته الدولة بعشرات آلاف الدولارات عن زريبةٍ كان يملكها في جبل لبنان بعد أن تمَّ إخراجه منها بالقوة أثناء الحرب الأهلية، وعند

انتهاء الحرب أعطي المهجَّرون المسيحيون من الجبل مبالغَ ماليةً كبيرة تعويضاً عن الممتلكاتِ التي فقدوها، فأخذ حينها حصته وحصة عمِّهِ الذي توفي مع كل أبنائه خلال الحرب، وهكذا أسس لأعمالٍ خاصةٍ له وأصبح مثل كثيرٍ من الأثرياء الذين يعطيهم الرب أرزاقهم من دون تعب، ومع ذلك لم يكن بطرس الجد يعترفُ أن الحظَّ حالفه في الحياة ليؤسس لأعمالهِ وثروته، بل كان يتبجحُ أنه تعب وعانى كثيراً حتى استطاع أن يجمع ماله، وأنه تشرَّد أثناء الحرب الأهلية وفقد كل أقاربه، لكنني متأكدٌ أنه كان نذلاً حينها، فوحدهم الأنذال يبقون على قيد الحياة في الحرب الضروس. وهو اليوم على حافة قبره ولديه ثلاثة أولاد، ولولا كلودين كان سيأكله الجوع والأوساخ والأمراض فهي الوحيدة التي تعتني به، أما إخوتها فهم أشد نذالةً من أبيهم، خصوصاً ذلك المعتوه الذي يحب إطلاق النار في الأفراحِ والأتراح، حيث يعيش شخصية أبطال الأفلام الحربية بكل تفاصيلها، أما أخوها الآخر «جوزيف» فيمكن أن يقتلك من أجل عشرة دولارات أو من أجل ريال مدريد، ويظن أن سيارة الـ«بي أم دبليو» التي يملكها قد صُنعت في (ناسا) ويتبجح بالكلام عنها كأنها السيارةُ الوحيدة على سطح الكرة الأرضية. وقد نقل العدوى إلى أخيهِ الأصغر «جون» الذي يظن بدوره أن سيارته أيضاً تمت صناعتها في (ناسا) وأن كلبته (دولييه) تم استقدامها من غابات إفريقيا، وكأن أباها نمرٌ مرقط وأمها أفعى كوبرا، يتباهى بكلبتهِ وكأنها تحمل دكتوراه في الفيزياء النووية من كامبردج، أو بالكيمياء العضوية من أكسفورد، ويغضب عندما تقول له أبعد الكلبة

عني، يريد من الناس أن تناديها «دولييه» فربما يخاف على شعورها العاطفي أو شيئاً من هذا القبيل، وعلى الرغم من ذلك كنت أحترمها أكثر منه لأنها أم (ديمين)، كلبي الذي قتلته كلودين أمام الجميع بطريقة وحشيةٍ، كم كنت أتمنى لو كان (ديمين) شرساً أكثر وعرف بمخطط اغتياله عن طريق مخابرات دولةٍ أخرى وأحبط محاولة اغتياله.

الفصل الثالث

قادمون يا ماما ميركل

ميناء طرابلس

كان نديم يجلس بقرب أحد الأطفال المسافرين في صالة الانتظار بقاعة المغادرين في ميناء طرابلس، وكان الطفلُ يحمل قفصاً فيه ببغاءٌ يصدر أصواتاً مزعجةً بين الحين والآخر، وما إنْ ينظر إليه الطفل حتى يصمت فوراً.

وإلى جانب الطفل كانت تجلس امرأةٌ محجبةٌ تحمل مصحفاً وتقرأ، ولا تعير أي اهتمام لما يدور في قاعة المغادرين المكتظة بالمسافرين الذين كانوا يخلّصون أوراقهم ويراجعون أمتعتهم، ويتأكدون أن أعضاءهم جميعها ستغادر معهم، فاللاجئون يخشون أنْ يبقى شيءٌ من أجسادهم ملتصقاً بأماكن الإقامة المؤقتة، لما لتلك الأماكن من ذكرياتٍ سيئةٍ معهم.

كانت المعلومات تتوالى حول الرحلة، منها ما كان إشاعاتٍ ومنها ما كان حقيقياً، ولكن المؤكَّد الذي يتم تناوله وتناقله بين جميع الركاب أنَّ القبطان سيكون سوريّاً وهذا يعني أن الرحلة ستكون مريحة بالنسبة إلى نديم، فأنْ يبحر بك ابن بلدك خيراً من أن يبحر بكَ الغريب، مع العلم أن كليهما سوف يصلان بكَ إلى مكانٍ غريبٍ، هو ليس وطنك، بل هو منفاك الدافئ. ولكن أن

يتولى قيادة سفينة الشحن التجارية ــ المعدلة لنقل الركاب ــ قبطانٌ يحمل جنسيتك، فهذا بشكلٍ عام يعطي شعوراً بالطمأنينة للرحلة من طرابلس إلى مرمريس، شعوراً بدفءٍ ما غير مبررٍ ولكن الدفء هو من أهم الأحاسيس التي يحتاجُ إليها المسافرون بين المنافي والمغتربات.

يظهر عماد وصفوان من بعيدٍ يحملان الأوراق والتذاكر، فلقد انتهى كل شيءٍ، وتم ختمُ التذاكر بختم المغادرة الصالح لأربعٍ وعشرين ساعةً من تاريخ ختمهِ على التذكرة وجواز السفر، والذي كان حلماً أو شيئاً ما يشبهه في بلادٍ لا تحب غريبها ولا غريبها يحبها، لكن البقاء يأتي بدافع المنفعة المشتركة، فليس هناك أرضٌ أكثرُ رحمةً من أرض بيتك سوى أرض قبرك، هذا ما كان يجولُ في بال نديم قبل أن يقطع صوت عماد الخشن سيل الأفكار الجارفة التي يفكرُ بها، ويقول عماد:

- «عليك أن تدفع مئتين وخمسين دولاراً ثمن التذكرة، لقد كلفت أقل من ذلك ولكن اضطررنا أنْ نعطي رشوةً لكيلا نضطر للبقاء مدةً طويلة، والتأكيد ليس أنا من دفع خمساً وعشرين دولاراً زيادةً بل هذا المعتوه (ويشير إلى صفوان) فأنا أقفُ في الطابور إلى آخر عمري ولا أدفع، ولكنَّ هذا المعتوه لا يقدِّر قيمة المال، إن المال نعمة والبطر بالنعمة دليلٌ على زوالها، ولكن المعتوه أصرَّ أن يعطي الموظفَ رشوةً لكي لا ننتظر».» وينسى عماد آلاف الدولارات في حقيبتهِ التي أخذها من ألفيرا النائمة الآن.

عندها يصرخُ الببغاء بجانبهم: «رشوة... رشوة».

قبل أن ينظر الطفل إليه ليصمت، فيقول نديم:

- «ليس هناك مشكلة، المهم أن تبدأ الرحلة فأنا أشعرُ أنني أجلس في هذه القاعة منذ عشر سنوات، فأنا أكره الانتظار جداً».

فيصرخ الببغاء: «انتظار... انتظار...انتظار».

لكن الطفل يجبرهُ على الصمتِ مجدداً، يقول صفوان:

- «لن نتأخر كثيراً فالرحلة بعد ساعتين، لقد سمعنا أن كلَّ شيءٍ جاهزٌ والركاب جميعاً هنا والطاقم جاهزٌ على متن السفينة، لقد عرفنا اسم السفينة (ألكسندرفيرندز) وهي مجهزة لنقل البضائع وتعود ملكيتها لرجلِ أعمالٍ لبناني وهي تنقل المواد الكيميائية والإسفلت، ولكنه تم تعديلها لتنقل الركاب منذ بداية الحرب، وقد أخبرنا أحد العاملين من الطاقم أن الرحلة قد تستغرق بين إحدى عشرة وأربع عشرة ساعةً كحدٍّ أدنى، وهذا مرتبطٌ بسرعة الرياح وحركة الأمواج والحظ، على أيِّ حالٍ نحن نُعتبر أمواتاً في البحر ريثما تنتهي الرحلة.

عندها يصرخُ الببغاء: «أمواتاً...أمواتاً...أمواتاً».

فيقول نديم متسائلاً ويصمت الببغاء حينها:

- «وعندما تنتهي الرحلة هل نصبح أحياءَ؟».

فيجيب صفوان:

- «لا، ولكن سنصبحُ أمواتاً على اليابسة، فكما يقول البحار الذي يعمل على متن (ألكسندر فرندز) البحر كالعاهرة لا تستطيع أن تقيم معه علاقةً صادقةً، ولا يضمنُ لك سلامتك لثانية واحدة».

فيصرخ الببغاء: «عاهرة...عاهرة...عاهرة».

فيقاطعه عماد صارخاً موجهاً صوته باتجاه الببغاء:

- «لا ترد على كلام هذا الأبله، إنها سفينةٌ قوية وطاقمها محترف، وهي سفينةٌ تذهب وتأتي دائماً، ولا مشاكل بها ومجهزةٌ للطوارئ، وستكون هذه الرحلة رقم أربعمائة واثنين وستين.

فيصرخ الببغاء مجدداً: «أمواتاً... أمواتاً».

فيقول صفوان موجهاً كلامهُ للببغاء أيضاً:

- «سأنتفُ ريشك، ريشةً ريشةً، وسأشوي لحمكَ أيها الكائن الملعون».

لكن الببغاء ظلَّ يصيح: «أمواتاً... أمواتاً... أمواتاً».

عندها طلب نديم من الطفل أن يبتعد عنهم، فاستجاب الطفل وحملَ الببغاء الذي ابتعد به، لكن الببغاء ظل يصيح: «أمواتاً... رحلة... أمواتاً... رشوة... أمواتاً».

ساعتان وسينتهي كل شيءٍ، سترفع (ألكسندر فرندز) مرساتها وتشغل محركاتها وسيكون عدد الركاب أصبح كاملاً على

متنها، ولن يغيب أحدٌ من مئتين وخمسين راكباً إلى جانب الطاقم المؤلف من أربعٍ وعشرين بحاراً وفنياً، وسوف يحدد القبطان زاوية الإبحار وسرعة المحركات انطلاقاً من سرعة الرياح وحركة الأمواج، وسيكون الجميع في حالةٍ من عدم الاستقرار، فهذه الرحلة تشبه الرحلات الفضائية لكونها خروجاً من مكانٍ إلى مكانٍ آخر مختلفٍ كلياً وجذرياً، وهي رحلةٌ من الجحيم إلى النعيم أو كذلك يجبُ أن تكون، خصوصاً عند الذين يرون أنفسهم أمواتاً براً وبحراً وجواً.

كان نديم لا يزالُ مصاباً بالصدمة وغير مصدقٍ لما حدث لأن موعد الرحلة كان من المفترض أن يكونَ بعد شهرٍ من الآن، حيث إنه لم يكن جاهزاً للسفر اليوم، حيث اضطر لحزم ثيابه بسرعةٍ واتصل بشوقي ليخبره بما جرى وأنَّه لن يكمل العمل، لأن موعد الرحلة تغير وكان من المفترض أن يبقى شهراً آخر في المكتبة ريثما يجد شوقي شخصاً آخر يحل محله، كما أنَّ له راتبَ الشهر الفائت الذي لم يقبضه نديم، حيث كان شوقي يعاني من أزمةٍ ماليةٍ خانقةٍ نتيجة مرض زوجته، ولعلم نديم بذلك اضطر للتنازل عن راتب شهرٍ من العمل، لأن نديماً يجب عليه أن يكون في السادسة صباحاً في ميناء طرابلس، وقد أخبر أصدقاءه بأنه قادمٌ وأنه يحتاج لمبلغٍ مالي إضافي للرحلة، ولكن عماد طلب منه أن يأتي على كل الأحوال، وأخبره أنه سيدفع هو وسيقرضه كل ما يحتاج إليه بشرط ألّا يتأخر عن السادسة.

لم يفهم نديم لماذا سوف يضحي عماد من أجله، أو من أين

جاء بالمال، ولكنه يعلم تماماً أن عماد لا يساعدُ أحداً من دون مقابل ويخاف ويحرص على أمواله أكثر من حرصهِ على عيونه، لكنه اعتقد أن عماد يريد الخلاص بأيِّ ثمن، وربما استطاع أن يوفِّر من عملهِ الشهر الفائت مبلغاً كبيراً.

«ليس مهماً الآن سوى الإبحار»، هذا ما كان يجولُ في بال نديم رغم بقائهِ تحت تأثير الصدمة إلى لحظة الإبحار، كان يتوجب عليه أن يودع كثيراً من الأشخاص، وخصوصاً أنْ يودّع منال التي ستعيشُ حالة كآبة لفراقه وربما ستشعر بالحزن الشديد، وقد تتهمه بالخيانة والذهاب بدون تمهيدٍ ولا حتى قول كلمةٍ واحدة.

يتساءل في نفسه «كيف ستشرب قهوتها اليوم؟ ربما سيكون اليوم من أسوأ أيام عمرها، فهي قالت لي إنَّها تحبني أو أفهمتني ذلك، وقالت إنها تتفهم وضعي الحالي، وتتفهَّم أنني لا أستطيعُ أن أبني معها أيّ حلمٍ ولا أستطيع أن أقدم لها أيّة ضمانات، ولكن مع ذلك أرادت أن تتحدى وأنْ تربي الحلم، وأن تحاول ترويض الواقع الفوضوي حولنا، مسكينةٌ هي موني، لن تجد معركةً واحدةً ترضى بها بطلةً.

كما أن شوقي سيكون منزعجاً، فهو لا يحب مثل هذه الأساليب في التعامل، يحبُّ الوضوح والصراحة والبساطة وسيعتبرني وضعته تحت الأمر الواقع، رغم أنني أخبرته عن سفري وكان مستاءً لكنه تقبل الأمر في النهاية، وأخذ يبحث عن شخصٍ أخر ولكني استعجلت بالذهاب، وهو يكره أن تأتي الأفعالُ دون مقدمات

ودون تمهيد، كما يكره الشكل الاعتباطيّ وغير المنظم للمشاريع في الحياة، فكلُّ شيءٍ لديه يمشي وفق شكلٍ محددٍ مرسومٍ مسبقاً.

ولن ينسى نديم أم حنا التي أحبته وكانت تستوقفه أثناء دخوله وخروجه من الغرفة، وتمطره بالأسئلة التي لا تنتهي والتي كانت لا تغادر الشرفة لحين عودته، حتى إنها في الفترة الأخيرة صارت تسأله عن سبب تأخيره وتقول إنها تخشى عليه من أولاد الحرام، فالبلاد مليئةٌ بهم كما كانت تدعي ثم يقول في نفسه «مسكينةٌ هذه العجوز»، وعلى الرغم من أنه أخبرها بذهابه وفكرة سفره وفتحت عليه نار لسانها، لكنه لم يخبرها عن الوقت بدقة.

***

يُفتح المذياعُ في قاعة المغادرين ويصدِر صوتاً مزعجاً يشبه الصرير، ثم يبدأ أحدهم بالكلام عبر المذياع:

- «على جميع الركاب المغادرين في الرحلة أربعمائة واثنين وستين، على متن الناقلة (ألكسندرفيرندز) التهيؤ خلال ساعةٍ للصعود على متن السفينة، أكرر...»

ثم يكرر البيان الموجز ثلاث مراتٍ قبل أن تسري قشعريرةٌ مفاجئةٌ في جسد صفوان الذي كان ينظر للبحر عبر نافذة قاعة الانتظار، حيث لم يكن يقل صدمةً عن نديم، فلم يكن يعلم أنَّ الرحلة ستكون بهذه السرعة. أما التطورات المتسارعة التي حدثت في اليومين الماضيين جعلته يشعر أن القدر يرسم له الخريطة،

وأن لا حول له ولا قوة في تغيير أيّ شيءٍ، ومما زاد توتره في تلك اللحظات ذلك الببغاء الذي لازال يراه من بعيد في قفصه الذهبي ذي القاعدة الصفراء مع الطفلِ، والكلام الذي كان يردده، فهو يتطير من مثل هذه الحوادث، إلّا أنَّ خشيته الأساسية كانت تكمن حول أنطوانيت التي من المفترض أن تكون بعد ساعةٍ من الآن في الفندق تنتظره. صحيحٌ أنه أخبرها عن قصة الهجرة منذ البداية، وكان يعدها وعوداً كاذبةً بأنه سيرسل وراءها حين تقبل أي دولة أوروبية لجوءه، لكن هذا لا يبرر أبداً أن يتمَّ الفراق بكذبةٍ أكبر.

وباستثناء أوراقه الشخصية، بقي كل شيءٍ يملكه صفوان في خزانة أنطوانيت التي شاركها إياها، فثيابه وعطوره والهدايا التي اشترتها له وأهدته إياها، وأشياء أخرى كثيرةٍ، فقد كان ينام معها في الشقة يومياً في آخر شهرين انقضيا، وستكون اليوم في حالةٍ من الذهول والرعب والانتظار. ستعتقد أنه تعرض لمكروهٍ ما، أو ستظنُّ أنه توفي بعد حادث سير أو جريمة قتل أو تم اختطافه أو اعتقاله من قبل جهة ما، وربما ستعيش أياماً عصيبةً جداً حتى تفقد الأمل من عودته، وسيبقى السر الأكثر غموضاً في حياتها.

لكنَّه كان مجبراً، فقد ورطه منذ البداية عماد بهذه الخطة الجهنمية، وقال له إنهما عندما سيخبران أنطوانيت وألفيرا بأن هجرتهما أصبحت قريبة وأن بقائهما في لبنان لن يدوم أكثر من أيامٍ قليلةٍ قادمة، فستطردانهما من المنزل وتدبران لهما طريقةً للخروج طرداً من الفندق أيضاً، لأنَّ عماد مقتنعٌ تماماً أن أنطوانيت وألفيرا

يتخذانهما للمتعة الجنسية الخالصة فقط، وأنه ليس هناك أيّ مشاعر نبيلة تربطهما كما يدعي صفوان، وقد قال عماد لصفوان:

- «لا تظن أنك تختلف عن العاهرة التي تنام مع الرجال مقابل المال، فأنت تمارس المهمَّة ذاتها لكنك تمارسها مع أنطوانيت، تنام معها وتؤمن لها سريراً دافئاً مقابل أن تؤمن لك مكاناً أفضل من غرفة أم حنا وتوفر عليك المال الذي تدفعه للمومسات، فتدعوك لتكون معها في منزلها مقابل ألا تنام مع غيرها وتصرف عليك، وألفيرا تفعل معي ذلك تماماً، ولذلك عندما ستعلمان أننا سنهاجر سيطردانا من الفندق والشقة وسيبحثان عن ذكرين آخرين يقبلان أن يعملا بمهنة «عاهرةٍ ذكر».

وعندها أخبره عماد أن السفينة التي كانت من المقرر أن تنطلق بعد شهرٍ إلى تركيا ستنطلق غداً، لم يكن لدى صفوان أيُّ خيارٍ سوى أن يترك نهاية الكذبة مفتوحةً مع أنطوانيت مع أنَّه أخبرها في السابق عن موضوع الهجرة و وعدها أن يكونا سوياً في برلين، لكنه كان يؤكد لها دائماً أن الموضوع مؤجلٌ الآن، وأن الهجرة ستكون في الأشهر القادمة، لذلك اضطر أنْ يخبرها أنه سيذهب إلى نديم في بيروت وسيكون صباحاً في الفندق، لكنه كان صباحاً في قاعة المغادرين في ميناء طرابلس، في حين كان عماد ينفذ خطة الانسحاب الاستراتيجي من حياة ألفيرا نهائياً وإلى الأبد، بعد أن نفَّذَ خطته بحرفية وغادر شقتها وحياتها مرةً واحدةً إلى قارةٍ جديدةٍ مع نصرٍ مؤزَّر، و أخذ منها فاتورة حبها له وأعطاها سريراً دافئاً سيبرد عند الصباح، وشهوةً مؤقتةً ورعشةً ستنتهي

عندما ستستيقظ و ترى خزانتها مبعثرةً وجسدها عارٍ وعشيقها هارباً، ولن تعرف إلى أين ذهب، لكنها ستكون اللحظات الأصعب في حياتها التي لن تنساها من اليوم حتى آخر لحظةٍ في عمرها، وعلى الرغم من كل التوتر الذي كان يشعر به عماد من حوالي أربع ساعات إلى لحظة انطلاق السفينة، لكنَّه حاول أن يبقى طبيعياً أمام رفيقيه، وأنْ يوهمهما أنه ضحَّى من أجلهما تضحيةً كبيرة، فهو سيدفع ما تبقى على نديم وصفوان ما طلبه أبو طارق زيادةً على المتفق عليه، فصفوان شريكه الاستراتيجي في الكذبة الكبرى والذي ينفِّذ الخطط دون مناقشةٍ، والذي يُعبد له دوماً طرق الوصول، فهو الذي أمَّن له العمل في الفندق، وهو الذي أقنع أنطوانيت أن يسكنوا جميعاً في الشقة ويقتسموا إيجارها الشهري، ومع ذلك كان من المفترض والبديهي لعماد أن يهرب وحده، لكنه كان أذكى من ذلك، فهو لن يترك ــ كقاتل محترف ــ أيَّ أثرٍ له في لبنان، خصوصاً أنَّه كان لا يُطلع أحداً على أسراره، وباستثناء اسمه وكنيته، لا يعرف كل الذين يحيطون به ــ حتى صفوان ــ معلوماتٍ عنه، فلقاؤه بصفوان في هذه البلاد جاء بالصدفة، فهو الرجل الذي يفهم هذا العالم جيداً، فهو لا يشارك أحداً، يأخذ ولا يعطي ويسمع الناس ويتكلم عن الناس ولكن لا يتكلم عن نفسه، ولا يتكلم عن مشاكله، وذلك ليس لصفةٍ نبيلةٍ به بل لعدم ثقته بالآخرين وشعوره الدائم بأن الآخرين يريدون معرفة نقاط ضعفه لاستغلالها.

كان عماد يتعامل بحذرٍ تامٍ دائماً حتى مع أقرب الأشخاص

إليه، فهو يفهم هذا العالم جيداً ويقتنع أن اللحظات السيئة ستأتي وستجعل الأشياء الجميلة بالنسبة لنا قبيحةً، وسترى الوجه الشرير للأصدقاء، وعندها لن يرحموك إنْ ظفروا بك وعلموا نقاط ضعفك، فهو لا يستطيع أنْ يرى هذا العالم إلّا غابةً ولا يستطيع أن يرى الناس إلّا بشكلٍ عدائي، ويرى أنَّ هذا العالم أجمعه يتحرك ليتآمر عليه وينال منه، فهو يفهم الحياة جيداً.

ومهما بلغت درجة عطائك له وتضحياتك من أجله، يبقى على يقينٍ أنّك تفعل ذلك لتسترده منه بأضعافٍ، وأنك تساعده لكي تستغله فيما بعد، وتعطيه لتأخذ منه لاحقاً وتربح، فهو يفهم العالم جيداً كما يدعي.

عماد ليس لديه محظورٌ في حياته، فكل شيءٍ مباحٌ له، وليس لديه قيمةٌ للأشياء غير الموجودة التي لا نستطيع لمسها، والتي ليس لها حجمٌ ووزنٌ ورائحةٌ وأبعادٌ، أمَّا حين يحتاج الأمر للمجردات في حياته ستجده ذلك الكائن الأخلاقي الذي يحاضر في العفة والإيمان والدين والشرف والطهارة، ويستخدمها كسلَّمٍ للوصول إلى غاياته العالية، تماماً كما استخدم الحب مع ألفيرا فأوصلها إلى النجوم، ثم تركها نائمةً وأخذ كل شيءٍ وهرب، فهو يفهم هذه الحياة جيداً.

انتهت الساعة الأخيرة لوجودهم على اليابسة في هذه القارة اللعينة من العالم كما يراها أحدهم، وكلٌّ منهم أفكاره تأخذه باتجاهٍ حين فُتِحَ المذياع في قاعة المغادرين وأصدرَ الصوت المزعج

ذاته قبل أن يتكلم عبره العامل في غرفة المذياع في قاعة المغادرين ويقول:

- «على جميع الركاب في الرحلة أربعمائة واثنين وستين على متن الناقلة (ألكسندر فرندز)، التوجه نحو البوابة رقم أربعة للصعود على متن السفينة، أكرر على جميع الركاب...».

حينها أصبحت السادسة والنصف بتوقيت بيروت، الأولى بتوقيت الأمل والأمان والحياة والحرية، وعلى بعد خمسين متراً من أرواحهم كانت أبواب الحرية تفتح بوجوههم، والهواء المفعم برائحة الأمواج والملح يلفح عيونهم المتعبة واللامعة التي تنتظر منذ وقتٍ طويل جداً أن تُفتح لها الأبواب، فكل أبواب العالم كانت موصدةً في وجه هؤلاء باستثناء باب الغربة والألم والتعب، وهم يظنون الآن أنه أُقفل نهائياً وإلى الأبد، فمنهم من يعتقد أنه يفهم هذا العالم جيداً، ومنهم من يعتقد أن وجوده الطبيعي هو في عالمٍ متحضرٍ بعيداً عن العنف وهو الوجودُ الصحيح، ومنهم من يعتقد أن الحياة لا تأخذ معناها الحقيقي إلا إذا ابتعدتْ عن التعب، وهم ذاهبون إلى مكانٍ خالٍ من التعب كما يظنون.

بدؤوا بالصعود على متن السفينة التي كان البحارةُ على متنها يعملون دون توقف لتجهيز مسيرها نحو الجنة، وكأنّ البحر يأخذ شكل أرواحهم، ويبدو هذا الأزرق الواسع اللامتناهي الأطراف وطناً مؤقتاً بدون حدود، وتلمع الأمواج في عمق البحر كأنها تحتفل بالقادمين نحوها.

دقائقُ من الآن ويبدأ الانعتاق من الزمان والمكان والحدود والبشر، الانعتاق الذي يبدو أنه انعتاقٌ أبديّ. لقد اكتمل صعود الركاب وأمتعتهم وأحزانهم وآمالهم التي ستحملها (ألكسندر فرندز) من قارةٍ إلى أخرى، وسيعبر- فوق مياه البحر الأبيض المتوسط ـ الأمل الذي نجا من المحرقة الصغيرة ليدخل زمن الملح والأمواج، نجا من معارك اليابسة ليجرب معارك البحر. سيعبرون طريق الملح الذي يرفده على اليابسة طريق الحرير، بينما هناك مئاتٌ من السنين واختلافٌ في المسافرين.

إنه زمن البحر، بعدما غدت اليابسة مكاناً خطيراً على الأحلام والآمال والحياة. الكل يفقد في الحرب المنازل والجسور والبنايات إلّا السوريون فقد أفقدتهم هذه الحرب أحلامهم.

تصعدُ قبل الانطلاق بدقائق لجنة السلامة البحرية لتفحُّصِ جاهزية السفينة بعد تشغيلها، فتدققُ في بيانات السلامة، وكالعادة بدل التوجه إلى أسفل السفينة للكشف على المحركات، تصعد إلى غرفة القبطان الذي كان يشرب القهوة مع مالك السفينة، حيث لا وقت لتشرب اللجنة قهوتها.

لذلك يدفع صاحب السفينة ثمن الفناجين التي ستشربها اللجنة على اليابسة، لكل فنجانٍ ثلاثمئة دولارٍ أميركي، فالقهوة التي يشربها الفاسدون لا تشبه القهوة التي تُباع في الأسواق.

تتمنى اللجنة المتخصصة السلامة للسفينة، وتعطي تقريرها المطبوع والمعدَّ مسبقاً قبل الصعود إلى السفينة موقعاً ومختوماً

ومكتوباً، حيث يفيد أن (سفينة ألكسندر فريندز) في حالة جيدة فنياً، وقد تم فحص المحركات وإجراءات السلامة وقد قامت السفينة باتخاذ كافة الإجراءات المتعلقة بالسلامة بالنسبة للطاقم، وحمولة السفينة متوافقة مع المخصص لها، وجميع المواد المنقولة على متنها مواد أمنةٌ غير قابلةٍ للتسرب، وغير ملوثة، وتتوافق مع معايير السلامة البحرية والاتفاقيات الدولية حول النقل البحري، وبحسب التقرير فإن (ألكسندر فرندز) ستحمل مئتين وخمسين طناً من الفحم من ميناء طرابلس في لبنان إلى ميناء مرمريس في تركيا، كما ويفيد التقرير أن السفينة خاليةٌ من أي مشاكل فنية في المحركات وخزانات الوقود، وأن الطاقم خضع لفحصٍ طبيّ اعتيادي، وأُثبت عدم وجود أي أمراض ساريةٍ لديه، كما أن أوراق الطاقم وجوازات سفرهم البحرية نظامية وأذونات الرحلة البحرية كاملةٌ، وأن القبطان وقع على التعهد الخاص الذي توزعه الموانئ لعدم نقل الركاب بصورةٍ غير شرعيةٍ، والالتزام بالاتفاقية الدولية لدول حوض البحر الأبيض المتوسط بعدم الاتجار بالبشر أو التسهيل أو المساعدة به.

وعندما انتهى التقرير تسلم القبطان نسخةٌ منه، وبقي هناك نسخةٌ في الميناء كما تجري العادة في الرحلات البحرية، وعندها أعطى القبطان الأمر بالانطلاق.

وبدأ الزمن يختصر الحياة موجةً موجة، وباتجاه الشمال الغربي بدأ موسم الهجرة إلى البلاد الباردة، حيث لا تأتي الشمس إليها إلا كضيف شرف، واكتمل كل شيء، وبدأت (ألكسندر فريندز) تشق

عباب البحر الأبيض المتوسط كراقصةٍ، وتتجه للشمال الغربي بسرعة تسع عقدٍ في الساعة.

حينها كتب نديم على ورقةٍ من دفتر الجيب رقم الرحلة: أربعمائة واثنان وستون، واقتطعها من الدفتر ووضعها في جيبه فقال له صفوان حينها:

اكتب نديم على مفكرتك: «إننا قادمون يا ماما ميركل».

الفصل الرابع

طريق الملح

مقهى هازال

على الضفة الأخرى، كان موسى كلاوي أو (البرغوث) كما يلقبونه، يرشد إحدى العائلات التي وصلت مرمريس إلى الغرفة التي استأجرها لها، حيث كانت عائلةً لاجئةً في لبنان وسافرت إلى تركيا عن طريق أبي طارق الشريك الاستراتيجي لموسى على الضفة الشرقية للمتوسط.

كان موسى كلاوي ينتظر العائلة في مقهى هازال الرئيس في مرمريس حيث كان ينتظر عادةً الزبائن الذين يصلون من قبل شريكه في لبنان أبي طارق هناك، ويقدم لهم الخدمات، فيستأجر لهم غرفة في فندقٍ أو غرفةً في منزلٍ في إحدى ضواحي مرمريس، بحسب المبلغ الذي يدفعه الأشخاص، ثم يؤمن لهم خروجهم إلى رودس في اليونان عبر مجموعاتٍ في قوارب مطاطية عبر المهربين، وكان يقبض على كل شخص ما بين المئة والمئة وخمسين دولاراً من المهرب إضافة لما قد يأخذه من المسافر نفسه لقاء الخدمات التي يقدمها، أو لقاء احتيالٍ ما عليه، وكان على اتصالٍ دائمٍ ويوميّ بالعديد من السماسرة في لبنان، الذين كانوا يؤمنون المهاجرين إلى تركيا كما كان لديه علاقاتٌ بسماسرةٍ في اليونان، يقدمون خدماتٍ للمهاجرين إلى داخل أوروبا.

كان مقهى هازال مُستأجراً من قبل مصطفى وبهجت أوزاي، الشقيقين اللذين بدآ منذ خمس سنوات العمل بهذا المجال، فاستأجرا المقهى وشغَّلا العديد من السماسرة معهما لتأمين المهاجرين، وكانت تلك فترةً ذهبيةً لجمع الأموال الطائلة من وراء الهجرة غير الشرعية عبر المتوسط من تركيا إلى اليونان، خصوصاً بعد أن كانت تتم بطريقةٍ ممنهجةٍ حيث كانت السلطات تغضُ الطرف من الجانب الأوروبي ومن الجانب التركي بل كانت ــ بالخفاء ــ تقدم التسهيلات لهذه الهجرة.

يدقُ هاتف موسى ذو الشاشة المتسخة، لكنه لا ينظر إلى هاتفه فقد خصص هذه النغمة لشخصٍ يعرفه جيداً، وسيعاود الاتصال به بعد أن يضع العائلة في الغرفة المُستأجرَة، ويؤمن لها وجبة غداءٍ، ولكن ليس على حسابه، ويأخذ منها مبلغاً مقدماً ليحجز لهم مكاناً عبر المجموعة التي ستنطلق ريثما يكتمل عددها (حسب ما يدعي)، فقد كانت كلُّ مجموعةٍ تتألف من حوالي خمسٍ وعشرين إلى ثلاثين شخصاً، يركبون القارب المطاطي لعبور البحر بين مرمريس ورودس التي تبعد ثمانية عشر كيلو متراً عن رودس، وكان موسى والسماسرة الآخرون ينتهجون ــ في إقناع المسافرين ــ طريقةً خبيثة، فيصطادونهم أولاً ثمَّ يستأجرون لهم غرفةً، ويوهمونهم أنهم حجزوا لهم مكاناً في مجموعةٍ، ويخبرونهم أن المجموعة أصبحت مكتملةً، وتحتاج فقط إلى شخصين أو ثلاثة، وهذا ما يحدث مع جميع المهاجرين تقريباً، ولكن في الحقيقة قد تكون المجموعة غير مؤلفةٍ بعد، أو هناك خمسةٌ أو عشرة أشخاصٍ

بها، لكنهم مع ذلك لا يسمحون للزبائن أن يفلتوا من أيديهم، ويسوقون حججاً وأسباباً تبدو مقنعة للمهاجرين الذين لا يعلمون شيئاً عن الطريق سوى ما يتناقله غيرهم.

وقد يسوقون الحجج لتأخير الرحلة أو زيادة المبلغ المتفق عليه، فمرةً يقولون إنَّ هناك تضييقاً ونحتاج لدفع رشوة، ومرةً يقولون نحتاج أن نغيرَ الطريق، على الرغم أن الواقع هو أن تلك الحكومات في تلك المناطق كانت تقدم كافة التسهيلات للمهربين والمهاجرين على حدٍّ سواء، حيث لا تتواجدُ إلا بشكلٍ صوريٍ في تلك الجغرافية من العالم.

يصل موسى إلى الغرفة التي يستأجرها للزبائن في منزل بوران، التي كانت هي النسخة التركية من أم حنا اللبنانية، حيث تقسم منزلها لغرفٍ وتؤجِّره للمسافرين، تقول بوران لموسى:

- «هيه برغوث، أين داوود بوشكاش؟ لم يعد حتى الآن، لقد أتى بشخصين البارحة وناما هنا، ولم أر منه أي قرشٍ ولا يردُّ على هاتفه، أين هو ابن اللقيطة هل سيظن أنه سيهرب من بوران ذلك التافه؟».

- «بوران هانم إنه ينـــ... ينـــ... ينتظر الزبائن، لقد كان في المقـــ... مقـــ... مقهى، سأقول له مساءً أنَّ الست بو... بو... بوران تريدك».

- «كلُّكم أولاد قحبة، تغَطُّون على بعضكم البعض، بالنهاية

أنتم لستم دكاترة جامعات، أنتم سماسرة تافهون، ويجب أنْ تبقى (الصرماية) فوق رؤوسكم».

- «صر... صر... صرماية؟؟؟؟ سامحكِ الله يا ست، هل تأخر عليك البر... بر... برغوث في الدفع يوماً ما؟ أحياناً أدفع لكِ مقدماً (على الرأس)، رغم أنَّ غرفك ضيقةٌ وأستطيعُ أنْ آخذ الزبائن إلى فنـ... فنـ... فندق (غولاي ستار)، ولكن أنا أتعامل معك، وأنت تعرفين البر... بر... برغوث جيداً، البرغوث لا يأكل مال حرام، البر... بر... برغوث ليس بو... بو... بوشكاش، سامحك الله يا ست بو... بو... بوران».

- «يا برغوث الكلب، هل تظن أنك تعمل في جمعية خيريّة؟؟ إنك يا ابن الحرام تحتال على المهاجرين السوريين المساكين فتسلبهم أموالهم، وأنت تعلم أنّهم يستطيعون العبور من هنا إلى اليونان بربع الثمن الذي تأخذه منهم، لكنكم لا تخافون الله وعذابه، اغربْ عن وجهي وإياك ألّا تأتي مساءً للحساب».

- «الله سبـ... سبـ... سبحانه وحده يعرف كم يحبك البر... بر... برغوث».

ثمَّ يستدير البرغوث نحو العائلة التي كانت تسمع النقاش كاملاً، ويقول لهم:

- «الهانم بوران ترحب بكم في منـ... منـ... منزلها، وتدعو لكم بالإقامة المريحة، وتسألكم إن كانت الأوضاع في بلادكم جيدة».

حينها ابتسمت العائلة في وجه بوران وحيتها، بعد أن اقتنعت أنَّ ذلك النقاش الدائر بين موسى والهانم باللغة التركية كان ترحيباً بهم فعلاً! لكن بوران تفهم جيداً أنه يكذب عليهم، لكنها لا تعرف اللغة العربية لتخبرهم أن موسى كلاوي (صرماية).

وعندما يخرج من منزل بوران يدقُّ البرغوث هاتفياً لأبي طارق في لبنان:

- «ألو مرحبا أبا طارق، أي ساعة انطلقت الرحلة من لبـ... لبـ... لبنان».

- «مرحبا موسى حبيبي، لقد انطلقت الرحلة الساعة السادسة والنصف صباحاً، على متن السفينة (ألكسندر فريندز)، هناك ثلاثة زبائن سيلتقون بك فور وصولهم، كما أن على متنها كثيراً من الذين ستستطيع اصطيادهم، حاول أنْ يكون اتفاقك مع الشبان الثلاثة عن طريق صفوان، فهو الأكثر غباءً بينهم ويصدق أي شيء، قلْ له إنَّ عمك أبا طارق أوصاني أنْ أطعمكم الكباب لحظة وصولكم إلى تركيا، تستطيعُ أن تأخذ منهم حتَّى ثيابهم حين تطعم صفوان وجبة كباب، لقد أخذت منه ألفي دولارٍ في لبنان عندما أطعمته شاورما».

ثم يضحك ضحكةً طويلةً ومتواصلةً، ويتردد صداها في هاتف موسى ذي الشاشة المتسخة، قبل أن يقول موسى:

- «وهل أفهمتهم أنَّ الأتراك أخوات (شلـ... شلـ... شلـ...

شـليتي) وأن قتـل الرجـل عندهـم مثـل شُر... شُر... شرب كـوب حليـب؟»

- «نعـم أفهمتهـم ذلـك، ولكـن هنـاك واحـداً بينهـم عنيـد جـداً وأبخـل مـن أمـي اسـمه عـماد، لا أعـرف مـن أيـن أتـى بالمـال ليسـافر ولكنـه قـد يبقـى في تركيـا ولا يكمـل إلى اليونـان، وعندمـا سـتعرفهُ ستكتشـف أن هنـاك شـخصاً مـا عـلى سـطح الكـرة الأرضيـة أوسـخ منـي وهـو عـماد».

- «أســـ... أســـ... أسـتبعد ذلـك، (فأنـت شيـ... شيـ... شـيخ الـكار) في حرفـة الوسـ... وسـ... وسـاخة، حتـى البر... بـر... برغـوث لم يصـل إلى مرتبتـك، ولـو وزعـوا رتبـاً عسـكريةً للوسـاخة كانـت رتبتـك سـتكون مُشـ... مُشـ... مشـيراً».

فيقهقـه الاثنـان بضحكـةٍ طويلـةٍ وفاجـرةٍ قبـل أنْ يقـول أبـو طـارق:

- «نتكلم لاحقاً، عمك أبا طارق يريد أن يتبوَّل».

- «والبر... بر... برغوث أيضاً».

صباح بارد

التاسعة صباحاً...

جاء الجميع وتأخَّر هو، وهاتفه خارج التغطية، وقلبي أيضاً. لقد أمضيت الليلَ كلَّه وأنا أُحصي الكلمات الجميلة، لأقولها لهُ في الصباح حتى إنني اضطررت أن أستعين بورقةٍ وقلم، وأركِّزَ أفكاري وأكتبها بالأرقام، فلن أكون نمطيةً معه لأنَّه لا يحب القوالب الجاهزة، يحبُّ التجدد ويحبُّ أن يشعر أن أمامه امرأةً تقلبُ الأوراق على طاولة المستحيل، وتنسجُ من أنوثتها شباكاً لبسمته الشاردة، هو يحبُّ ذلك...

لقد أشعل في داخلي كلَّ أوراق الزمن القديم، ومشاعر الزمن القديم، وأفكار الزمن القديم، إنَّه رجلٌ يحترف إلقاء أعواد الثقاب على الماضي، وجرجرة الكائن الذي داخلي إلى ملعبه، إلى منطقه ومنطقته وطريقته في الحياة والكلام، لقد أيقظَ داخلي الأنثى التي غطَّتْ في سباتٍ عميقٍ منذ أواخر مراهقتها، وغدتْ مع الزمن ليستْ نائمةً فقط، بل وأسيرةً، فكثيرٌ من الأحاسيس لا نستطيع استعادتها برغم أن لدينا عضلة قلبٍ لا تتوقف عن ضخِّ الدماء، فدوماً نحن بحاجة الفتيل، بحاجة تلك اللحظة التي يقوم القدر

بـدق الجـرس داخلنـا عـن سـبق إصرارٍ وترصُّـد، فالقـدر يحـترف الجرائـم الكاملـة!!!

لقـد سـميّتُهُ رجـلَ المستحيل، فأسـماني فراشـةً ولكلٍّ منَّا من اسـمه نصيبْ. لاعَـبَ المستحيلَ داخـلي وتعامـل معـي كـما يتعامـل العازفـون مـع آلاتهـم الموسـيقية، والفرسـان مـع جيادهـم وأسـلحتهم، بكبريـاءٍ وفروسـيةٍ، لكنـه كان بارعـاً في صناعـة المسـافة ووضـع الحـدود. لقـد ورَّطنـي بهـذا الدفـتر الـذي أصبـح يومـاً بعـد آخـر بديلـهُ لـدي، وكل المحـاولات لاسـتمالتهِ انتهـتْ بالفشـل وذهبـتْ أدراج الريـاح ولم تبـقَ إلّا كلماتـه المكتوبـة بخـطٍ عـربيٍّ جميـلٍ عـلى تلـك المفكـرة ذات اللـون الأزرق، ومرسـومٌ عليهـا صـورةٌ كبـيرةٌ باهتـةٌ لقلـم حـبرٍ مـن ماركـة (كاسـتيل) العالميـة، لا أفهـم لمـاذا هـذه الطريقـة بالتعامـل معـي!! هـو بقمـة اللباقـة والنُّبـل والأخـلاق، لكنـه يتعامـل معـي بأسـلوبٍ فريـدٍ وغريـب.

لا يريـد أنْ تربطنـا علاقـةٌ دافئـة، ولا يـودُّ الاقـتراب، ويعـرف بحرفيـةٍ عاليـةٍ صناعـة الحواجـز والمسـافات، كان صاحـب ثقافـةٍ عاليـةٍ تُغرينـي لأُبحـر معـه في الأجوبـة التـي يصطـادني بهـا، فأسـئلته دائـماً كانـت تفضحنـي قبـل أن تفضحنـي أجوبتـي، وتقـودني إلى ميادين أكـون فيهـا عاريـةً تمامـاً أمامـه. فالأسـئلة عـادةً تحمـل الإجابـة عـلى ظهرهـا، لكننـا لا نـرى.

سـأتحدث معـه عندمـا سـيأتي عـن روايـة (فيرونيـكا تقـرر أن تمـوت) فهـو يحـب باولـو كويلـو، ويحـبُّ اللاتينيين، وبالتأكيـد سيبقى

صامتاً فهو يحترف الإصغاء كمحققي المخابرات. سأخبره أنَّ فيرونيكا حاولت الانتحار لأنها شعرت بالملل والضجر من حياةٍ بلا هدفٍ وتمشي على إيقاعٍ واحدٍ وبطيء، وسيبقى صامتاً فهو يحترف الإصغاء كمحترفي تفسير لغة الجسد، سأنتقدُ فيرونيكا أمامه وسأقول إنَّ الحياة مليئةٌ بالأسباب التي تدفعنا لنعيش بسعادةٍ ونبني عالمنا، لكنه سيبقى صامتاً فهو يحترف إدخال الأحلام في عنق الزجاجة.

سأقول أمامه إن الحبَّ هو ما يعطي الحياة قيمتها، سيبتسم ويبقى صامتاً ولكني سأصدمه وأقول له بكل صراحةٍ إن مجرَّد وجود أحدهم إلى جانبي، يعطيني كثيراً من الطاقة الإيجابية والسعادة في حياتي، لكنه سيبتسم وسيبقى صامتاً فهو يحترف أن يكون احتباساً حرارياً وأن يحولني لقطب أنثوي متجمدٍ يذوب على مهل.

سأقول له بأن شعوري الغريب نحوهُ أثمن ما أملك، أو يجب أن أقول (نحو أحدهم) فهو يكره النمطية، ولن أقول له إنني أحبه كي لايقول لي (أحتفظُ بحق الرَّد) وكأنني أطلق صاروخ كروز على أرض قلبه!! سأقول إنَّ لدي شعوراً غريباً تجاه أحدٍ ما، يشبه الحب إلى حدٍّ كبيرٍ إنْ لم يكن حباً، ولكني لن أملكَ قدرته على المناورة والتهرب من الأسئلة التي تضعنا أمام مقصلة إجاباتها، لكن يجب أن يفهم أنني لا أخشى الغرق في بحره سواء أكانت الأمواج عاليةً أم المياه مالحةً، لكنه تأخَّر...

لقد تأخر كثيراً، شارفت الساعة على العاشرة صباحاً ولم تكن عادته أن يتأخر دون مبررٍ أو اتصالٍ أو علمٍ مسبَق، فهو ـ عادةً ـ يتصل بالمكتبة ويخبرنا أنَّه سيتأخر، لأنه قد يوصل كتاباً ما إلى مكانٍ بعيد، وكان الجميع حينما يتأخرُ يسألني عنه، فالكل يظنُّ أنني الوحيدة التي سأعرف مكانه، وأنا أتعمد دوماً القول أمامهم إنه يخبرني كل شيءٍ علماً أنني لا أعرف شيئاً، كلَ يومٍ أكتشف فيه بلداً جديداً وحضارةً ولغةً جديدة.

يدقُ هاتف المكتبة، أركض نحوه مثل المجنونة على أمل أن يكون هو على الخط، أردُّ بلهفة عاشقةٍ ومن دون أن أجيب كما نجيبُ بالعادة على الهواتف التي ترد إلى المكتبة حيث نرفع السماعة ونعرِّف المتصلَ مباشرةً أنه يدقُ على مكتبةِ شوقي فنقول (مكتبة شوقي بونجور).

لكنني خالفتُ قواعد الاشتباك وبرتوكولات العمل، حيث رفعتُ السماعة وبقيتُ صامتةً أنتظر صوته، وأحصي أنفاسهُ، لكن صوتاً خشناً وبعيداً وبارداً بادرني بالقول:

- «صباح الخير، لماذا لا تردون على الهاتف عندما ترفعون السماعة؟ أنا شوقي، سيأتي بعد قليلٍ موزعٌ جديدٌ للمكتبة لأن نديماً سافر صباحاً إلى تركيا، أخبروا الموزعَ الجديد أنْ ينتظرني حتى أصل إلى المكتبة».

فاتورة نعم

سألتزم بكل ما قاله الطبيب، لن أغضب ولن أتناول المواد الدهنية ولن أتناول الملح والسكر، وسأشرب الكثير من الماء يومياً، وسأقلع عن التدخين كما أنني سأطلب من ميلّا أن تطلب من كلودين ألّا تدخن في الغرفة التي أجلس فيها، وسألتزم بتناول الأطعمة التي يراها الطبيب صحيةً للجسد والقلب والشرايين.

سألغي كل القنوات التلفزيونية التي تبث الأخبار التي تجعلني منفعلاً وتشعرني بالحزن والقلق، سأتابع فقط القنوات التي تبثُّ برامجَ عن الطبيعة والحيوانات والفلك، فمتابعة حياة الزرافات والقردة والجواميس أفضلُ بكثير من متابعة مسار الثورات، والثورات المضادة، وحركات المقاومة والمقاولة والدول المستعمَرة والمستعمِرة، والطاغية والمُطْغى عليها، وأخبار الدول الصغيرة والفقيرة والمجاعات والحروب والحصار والقتل والدم، وبالتأكيد معرفة التشكيلات النجميَّة أفضل من معرفة التشكيلات الحكوميّة في هذا العالم، ومتابعة رحلة الجواميس من وسط إفريقيا إلى الشمال أفضل من متابعة هجرة اللاجئين من الشرق الأوسط إلى أوروبا، والجلوس أمام برامج الحيوانات أفضل من الجلوس في وجه كلودين الذي أصبح أكثر تجاعيداً من ذي قبل، وصوتها أكثر

خشونةً، ومنذ أن التزمْتُ الفراش ـ ولم أعدْ أعمل في الفندق ريثما تُجرى لي العملية ـ لاحظتُ ذلك، وشعرتُ أنَّ كلودين أصبحت أكثرُ عنفاً وقسوة، ولم تعد تتوقف عن توجيه الكلام الجارح والبذيء لي أمام الأولاد، وبدأت أشعرُ أنَّي لا أعيش في منزلي بل في سجنٍ، يأتون لي بالطعام ويذهبون، لا يجلسون معي ولا يتكلمون، كلٌّ منهم مشغولٌ بحياته الخاصة، وصرتُ اسألُ نفسي ما هو السبب!؟ مَنْ الذي أوصل حياتي إلى كلِّ هذه التعاسة!؟ ولماذا أقربُ الناس تنفرُ مني وتبتعد!؟ وما هو السبب في أنَّ الأولاد لا يأتون إليَّ ولو عشر دقائق في النهار ولا يخبروني أنهم ذاهبون أو ماذا يفعلون؟؟؟

فعلاً أنا أعيشُ في غربةٍ حقيقيةٍ وأدفع فاتورة الحياة دفعةً واحدة، فاتورة إهمالي للعائلة ربما، أو فاتورة علاقتي السيئة بكلودين، وأشعرُ أنَّ الأولاد كأمِّهم يحتقرونني، ويشعرون أنَّي ضعيفٌ وغير مفيد لهم بل وعالةٌ على العائلة، ومع بقائي وقتاً أطول أكتشفتُ تفاصيل صغيرةً في حياة أسرتي لم تكن واضحةً لي من قبل، فكلودين مشغولةٌ دائماً وبطرس وميلا أمام هواتفهم المحمولة طوال النهار، لقد كبر الأولاد فعلاً، يظنُّ المرء نفسه أنه يكبر وحده، فالناس تكبر أيضاً، فبطرس صار شاباً، وميلا أيضاً، وهما يتشاجران كثيراً ولكن لا أحد منهما يأتي إليّ ويشتكي من الآخر، يذهبان إلى كلودين التي تصرخ في وجه أحدهما ليصمت.

حاولت الاتصال بألفيرا مرات عدة ولم تجبني على الهاتف، ربما نسيت كل شيءٍ بيننا، وربما كانت تريد التوبة وعدم معاشرة

أيَّ رجلٍ مجدداً، وربما أصبحت في عُمْرٍ شعرت به بعدم حاجتها إلّا إلى الرب، غريبٌ هو الرب لا يتجلَّى لنا إلا بأواخر العمر، غريبٌ هو الرَّب ومسكينةٌ ألفيرا.

لكنِّي غيرُ مستاءٍ منها فلقد كنا أوفياء طيلة الفترة السابقة، والآن تدخَّل القدر وأبعدَنا، فغابتْ هي بطريقةٍ آمنةٍ ورحلتْ أنا بهدوءٍ، كأنها لم تكن يوماً ولم أكن أنا يوماً، ولا أظن أنها تعتبرني أنني أسأت التصرف معها، وحتى أنطوانيت عندما اتصلت بي وسألتني عن حالتي، رفضَتْ أن تنقلَ أي كلمةٍ إلى ألفيرا واكتفتْ بالقول إنَّ ألفيرا بصحةٍ جيدةٍ وتصلِّي من أجلك، وألفيرا تعلمُ جيداً أنني بحاجةٍ إلى عمليةٍ جراحيةٍ وليس للصلاة، بحاجةٍ لأطباء ومشفى وعناية، الرب لن يفعل شيئاً إذا كان الطبيب الذي سيجري العملية لي ساذجاً.

شعرت صباحاً لأول مرة في حياتي أنّني خرجتُ من سباق الحياة خاسراً، لم أشعرْ بالرضا ولم يعدْ هناك وقتٌ للتغيير، شعرتُ أنني أدفع ثمن خيانتي، بل ثمن خياناتي جميعاً. لقد خنتُ الحياة والسعادة عندما تزوجتُ بناءً على رغبة عائلتي، وبناءً على اختيارهم، وخنتُ الحياة والسعادة عندما أنجبتُ من أجل أسبابٍ لا أعرفها، فعلاً أنا لا أفهم نفسي! لقد خنتُ الحبّ عندما تزوجتُ، وخنتُ عائلتي عندما تعلقت بألفيرا، لقد كانت بديلاً، كانت حقنةً مسكنةً طويلة الأمد، تؤمِّنُ لي الدفء الذي لم أشعر به مع كلودين، لقد ابتعدتُ عن أسرتي لدرجةٍ اعتبروني بها لم أعد موجوداً، إنهم يبنون سعادتهم وخططهم وحياتهم ومشاريعهم

بعيداً عن وجودي، ولا يستشيرني أحدٌ منهم في أيّ شيءٍ، ولكن بالمقابل أنا من قرَّر الابتعاد، لماذا أنا أحاول أنْ أكذبَ على نفسي؟ أنا من ابتعدَ! كنت أقول إنَّهم أطفالٌ ولا يحتاجون إليَّ بل يحتاجون للمال فقط، ربما أنا الآن أدفعُ ثمن أخطائي وثمن ما كنت أقول وأعتقد، وعادةً ندفع حياتنا كتعويضٍ عن أفكارنا الخاطئة.

لكنّي لم أكن أحتمل كلودين، كانت دائماً تتكلمُ بصوتٍ مرتفعٍ وتطلب مني أشياءَ خارج قدرتي، وقد شعرتُ بعد زواجي منها بأشهرٍ أنها بدأت تتحول إلى رجلٍ، لم أفهم الطريقة التي تعيش بها، ومنذ زمنٍ وهي تتعامل معي باستحقار، وكأنها كانت من المفترض أنْ تتزوجَ بابن زعيمٍ ما أو سياسيٍ ما أو مسؤولٍ ما، لقد كنتُ مخطئاً منذ البداية، إنَّها فاتورة (نعم) التي قلتها لأمي وأبي.

أدفع فاتورة (نعم) التي كانت من المفترض أن تكون (لا). إنها (نعم) التي جعلت الحياة تهرب من أمامي كلَّ العمر، ودائماً في حياتنا هناك (نعم) تُدَمِّرُ، و (لا) تبني حياةً وسعادةً ورضا، هناك ثلاثُة أحرف تُغيِّرُ حياتك للأفضل وللأبد، وهناك حرفان يفعلان الشيء ذاته، ولو يعود بكَ الزمن إلى الوراء ستفكِّرُ ملياً قبل أن تقول (نعم) لأيّ سؤالٍ أو شخصٍ أو فكرةٍ أو مشروع وكذلك ستفكر في (لا)، فأنا الآن على مشارفِ العجز والتعب والمرض، وأدفعُ فاتورة (نعم ولا) اللتين قلتهما أو رفضتهما في عمري، ولكن أسددها مع فوائد عالية جداً، فكلُّ (لا ونعم) قلتهما أسددهما آلافاً من (لو وليت).

هذا ما سأقوله فقط

لا أصدق ما جرى! أشعرُ بصدمةٍ عارمةٍ، لا يمكن أن يحدث هذا، لا أصدِّق، تأكلني الشكوكُ ولا أستطيع رسم سيناريو واحدٍ لما حدث، آلاف الأفكارُ في رأسي، أشعرُ بالصداع فعلاً، تأكلني الأسئلة، الأسئلة التي لها آلاف الأجوبة، لكنّي عاجزةٌ عن معرفة جوابٍ واحدٍ صحيحٍ ولا أفهم، ولا أحد يستطيعُ مساعدتي، ربما صفوان هو الوحيد الذي أفهم منه ما جرى! لكنّه يغلقُ هاتفه منذ الليل، اتصلْتُ به تمامَ الساعة الثانية، وتحدثنا وقال إنه سيكون صباحاً في الفندق، جاء الصباح وحدثت الكارثة وصفوان لم يأت، يا رب ساعدني.

بدأتُ أقدِّمُ إفادتي للشرطة، لكنني قبلَ تقديم الإفادة سأحاول استذكار ما حدث بالتفصيل. طلبتْ منِّي ألفيرا أنْ نتبادل موعد الدوام في الفندق، لأنَّها تودُّ أنْ تقضي هذه الليلة مع عماد، فقد قالت إنَّ الليلة هي ليلة ميلاده. ثم أخبرني صفوان أنه لنْ يداوم الليلة في الفندق، فصديقهُ الذي يعمل في المكتبة في بيروت مريضٌ، وسيذهبُ ليقضي الليلة عنده.

كنتُ في الفندق الساعة الثانية عشرة ليلاً وحدي، تحدثتُ

مع صفوان حتى الساعة الثانية، ثمَّ انشغلتُ في الفندق، وعندما عاودتُ الاتصال به كان هاتفهُ قد أصبح مقفلاً.

انتهى دوامي عند الساعة الثامنة صباحاً من الفندق، لكنَّ ألفيرا والتي من المفترض أن تأتي صباحاً مع عماد لم تأتِ. اتصلتُ بها لكنَّ هاتفها أيضاً كان مغلقاً، وعماد أيضاً هاتفه كان مغلقاً كان أمراً غريباً فعلاً، وتسائلتُ في نفسي هل هاتفي معطلٌ!!

ثم عدتُ إلى المنزل، وكانت الساعة قد شارفت على الثامنة والنصف، شعرتُ أنَّ كل شيءٍ خارج التغطية، ولم أستطع الدخول إلى المنزل فالباب مغلقٌ بقفلٍ داخلي، أي إنَّ ألفيرا في الداخل لكنَّ هاتفها وهاتف عماد مغلقين (أو خارج نطاق التغطية).

بدأتُ أدقُّ على الباب، ولكن لا أحد يفتح، ثمَّ أعاود المحاولة لكن لا أحد يفتح الباب، أصرخُ عليها ولكن لا يفتح أحدٌ، شعرتُ أنني في كابوسٍ وللوهلة الأولى ظننتُ أنها قد تكون نائمةً وربما سهرَتْ لوقتٍ متأخر مع عماد، وربما شربا الكحول، ربما لايزالا تحت تأثير ذلك.

ثم استدرت إلى مدخل البناية حيث شرفة شقتنا وناديت بصوتٍ عالٍ، لكن لم يجب أحدٌ، ومازال الجميع خارجُ التغطية، ثمَّ خرجَ الجيران من البناية عندما سمعوا صوتي أنادي على ألفيرا ولا تجيب، وقال أحدهم إنَّ علينا خلعُ الباب لنعرف ماذا يجري فربما تعرضت لشيءٍ ما، وربما تعرضت للاختناق أو لأزمةٍ قلبيةٍ أو لمكروهٍ آخر. لكنني لم أرغبْ أن يتمَّ كسر الباب لأنني أعلمُ أنها

مع عماد، وكانت تكره أنْ يعرف أحدٌ من سكان البناية أنَّ هناك رجلاً ينامُ معها، ولكن لن يبقى أمامنا بعد أنْ مضى الوقت أيّ خيارٍ آخر، خصوصاً أنَّ الساعة قد شارفَتْ على العاشرة صباحاً، وعندما قررتُ أن أخلعَ الباب لم يرضَ أحدٌ من سكان البناية مساعدتي إلّا إذا اتصلتُ بالشرطة، ليرفعوا المسؤولية عن أنفسهم، فالجميعُ هنا يحسبُ حساباتٍ معقَّدة ويخشى أنْ يكون هناك جريمةُ قتلٍ في الداخل أو شيءٌ ما، وعندما حضرَتِ القوى الأمنية بعد فترةٍ من الزمن، تفاجأ الجميع بما جرى.

فبعد خلعِ الباب تبيَّن أنَّ كلَّ شيءٍ طبيعيٌ في المنزل، ولا علاماتٍ لأيِّ حادثةٍ مريبةٍ، فكلُّ شيءٍ كما تركتُهُ تماماً، كلُّ شيءٍ في مكانه، ولا أثرَ لأيِّ رائحةٍ في المنزل، ولا لأيّ بقعة دم، فالمنزل كما تركتُهُ تماماً، لكنَّ غرفة ألفيرا كانت مقفلةً، ومقفلةٌ من الداخل أيضاً، حينها شعرتُ بالرعب شعرتُ أنَّ ألفيرا قد أصابها مكروهٌ فعلاً، فلو كانت نائمةً لصحتْ بعد كلِّ الأصوات التي أحدثها خلعُ الباب ووجود الشرطة في المنزل، ثمَّ بدأتِ الشرطة تخلعُ باب غرفتها، وشعرتُ حينها أنّي سأرى جثتان على السرير.

خلعَتِ الشرطة الباب، وأذكرُ كيف شعرت بالانهيار التام حينها، ولم تعدْ أعصابي قادرةً على احتمال ذلك المشهد، بدأتْ ركبتايَ ترتجفان ولم أعدْ أقوى على الوقوف من شدِّة الرّعب ووقعتُ أرضاً. وأذكر كيف طلب الضابط من الجميع الابتعاد، وببرودة المحققين ورجال الأمن دخل ومعهُ ضابطٌ آخرُ والجميعُ انتظرَ في الخارج.

أذكرُ كيفَ منعَتِ الشرطة أيَّ شخصٍ من الدخول وراءهم، وكيف طلبَ الضابط من مساعده أنْ يطلب الصليب الأحمر فوراً، وكانت كلماته باردةً جداً وكأنَّ شيئاً لم يحدثْ، ثم توجَّه نحوي بعد أن دقَّقَ بكلِ تفاصيل الغرفة، وأدخلَ المصورين ليلتقطوا الصور لمكان الحادثة، وأدخلَ أشخاصاً يرتدون قفازات بيضاء، وقال لي مع بسمةٍ لا تخلو من متانة رجل الأمن:

- «لا تخافي ستحضرُ سيارة الإسعاف حالاً».

وقبلَ أنْ أبدأَ بالبكاء، طلبَ منّي رجلٌ آخر من الشرطة أن أذهب معهم إلى المشفى ليأخذوا إفادتي، وأخبروني أنَّهم سيسجلونها لحظة قدرتي على تسجيلها، وحينها شعرتُ بكثيرٍ من الخوف والتعب، وشعرتُ أنني جزءٌ من هذه المصيبة التي تحدثْ، ولم أكنْ أفهم أيَّ شيءٍ بعد، ولا أعرف ماذا حدث لألفيرا، رأيتها فقط ممددةً على السرير عاريةً أو ربّما ميتةً، والغرفةُ مقلوبةً رأساً على عقب،لا أعرف ماذا سأقولُ بالإفادة، لا أفهمُ ما يجري وماذا سأفعل أمام الشرطة، خصوصاً بعد أن ظنَّ الضابط أن ألفيرا قد تعرضت لمحاولة قتل، وتمت سرقة شيءٍ ما من الغرفة، هذا ما كنتُ اسمعهُ وأفهمُهُ من كلامهم، ولا أعرف بالضبط ماذا يكون الشيء المسروق، فهي تخفي كلَّ تفاصيل حياتها عني، فهي من تلك اللاتي كلُّ حياتهنَّ صندوقٌ أسودُ، وكل تفاصيل حياتهنَّ غامضةٌ وغير واضحةٍ، سأسجِّل إفادةً واضحةً، لقد كنْتُ في الفندق، وعدْتُ ووجدتُ ألفيرا على ما هي عليه، لا أعرف أي شيءٍ آخر، هذا ما سأقولهُ فقط.

حاضراً على الجدران

«الليل باردٌ ورائحة المراحيض والقمامة لا تفارق هذا الحيَّ القذر، كم كنت أدعو الرب أنْ أستطيع الانتقال إلى الشرقية حيث الجميع هناك ممن أعرفهم، ولكنّ أبا حنا أراد البقاء هنا، فقد كان أبو حنا يحب (هنا) أكثر من (هناك)، فقد كان يسارياً وفلسطينياً، أي كانت تحلُّ عليه اللعنتان معاً، فكان من الرجال الذين لا يحيدون عن مواقفهم مهما كانت التضحيات، لذلك لم يشأ أنْ يذهب إلى الشرقية.

كان أبو حنا يعمل مع فصيلٍ مقاومٍ للإسرائيليين، لكنه كان ضدَّ عرفات، أليس كذلك!؟ نعم أذكر أنه كان يشتم عرفات ويشتم السوريين، ولكن ليس كل السوريين فقط الذين يقفون ضد عرفات، أليس كذلك؟! نعم نعم، أذكر أنه كان يشتم عرفات والسوريين والمسيحيين، ولكن ليس كل المسيحيين فقط الذين يقفون ضدَّ عرفات وضدَّ السوريين، أليس كذلك!؟ نعم أذكر هذا جيداً، فقد كان يشتم عرفات ولكنه كان يقف ضد من يشتمه أيضاً، لا أدري لماذا؟ ومع ذلك كان يشتم اللبنانيين، ليس كل اللبنانيين، أكاد أفقد عقلي في هذا الليل، لعن الله أبا حنا، لماذا كان يشتم عرفات ويقف ضدَّ من كان يشتمه؟؟!!

لقد تذكرت، كان يختلف معه في التكتيك، ولكن ماذا تعني التكتيك؟ بالكاد أستطيع لفظها، لعن الله التكتيك والسياسة والحرب وهذه البلاد المقرفة.

الليل باردٌ ورائحة المراحيض والقمامة لا تفارق هذا الحيّ القذر، والمستأجرون لا يصمتون، لا ليلاً ولا نهاراً، لعنهم الله».

كانت أم حنا تمضي لياليها دائماً على هذا الحال، تنام عند الغروب وتنهضُ في ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل، تتذكر أبا حنا وتتحدَّث إلى الجدران، لا لأنهم أصدقاؤها الوحيدون بل لأنَّ الناس كانت تهرب من إزعاجاتها وأسئلتها وإلحاحها الذي لا ينتهي، وثرثرتها التي لا طائلَ ولا منفعةَ منها، ولكن الحياة أعطتها الخبرة اللازمة لقضاء وقتٍ جميلٍ مع الجدران والوحدة، حيث صار لها على هذه الحال سنواتٍ طويلةٍ.

في آخر عامين، بدأت أم حنا بفتح ملفات الحرب ومآسيها وزوجها المفقود حتى هذه الساعات، وتحاول استذكار أيامه الأخيرة لعلَّها نسيت أيّ حادثةٍ أو قصةٍ يمكن أنْ تستنتج من ورائها أين اختفى أبا حنا منذ أكثرَ من ثلاثين عاماً، فبعد أكثر من ثلاثين عاماً على الغياب، لم يعدْ لديها الكثيرُ من الأمل لمعرفة أيِّ خبرٍ عن زوجها.

ومنذ رحيل أولادها وبقائها وحيدةً، شعرَتْ أنها خرجت من الحياة بالبطاقة الحمراء، لكنها أصرَّتْ أن تبقى وتعيشَ فقد أعطتها الحياة الخبرة اللازمة للتعامل مع الوحدة والمستأجرين

الجدد والبياعين الجوالين، فقامَتْ بتقسيم بيتها الكبير إلى غرفٍ وتأجيرها، وكانت تلك المرحلة الأولى من معركتها مع الوحدة وقد انتصرت عليها فعلاً، حيثُ لا يخلو بيتها والغرف المستَأجرةُ فيه من الحوادث والقصص اليومية والأشخاص الذين يؤنسون وحدتها، نهاراً وليلاً.

تفتح أم حنا أرشيف ذاكرتها وتستعيدُ كل ما مضى، مرحلةً مرحلةْ، وفي هذه السنوات بدأَتْ بمرحلة الحرب التي لم تستطع إنهاءها وإنهاء البحث فيها، ومنذ أشهرٍ وهي تسهر وتفكر في حوادث بعينها، تتعلقُ بتحالفات زوجها التي أدتْ لغيابه ومحاولة إيذاءها وأولادها بعد غياب زوجها، وكانت كل ليلةٍ تضع المعطيات على طاولة البحث:

- «أبو حنا يحارب إسرائيل ولكن يشتم عرفات، وعرفات يحارب إسرائيل ولكن يشتم السوريين، والسوريون يحاربون إسرائيل ويكرهون عرفات، والمسيحيون يحاربون إسرائيل وعرفات والسوريين، ولكن أبو حنا كان يشتم عرفات، ولكن عرفات كان يحارب الإسرائيليين أيضاً!! لعن الله الحرب».

وبعد البحث والتدقيق تشعر بالنعاس، فتركن إلى فراشها وما إن تغمضَ عيناها حتّى تتذكرَ الأبواب وتسألُ نفسها «هل أقفلتها؟» وتبقى تتكهَّن حتى تضطرَ أنْ تنهض من فراشها وتتأكد من إقفالها الأبواب، ثم تركنُ إلى الفراش وقبل أن تغمضَ عينيها تتذكر جرَّة الغاز المنزلي، وتتساءل: هل أغلقتها؟

ثم تقول في نفسها: «إذا بقيَتْ مفتوحةً سأختنقُ، وسيدخلُ المستأجرون ويسرقونَ كلَّ شيءٍ وسأكونُ ميتةً، ولن أستطيعَ حينها فعلَ أيّ شيءٍ»، ثم تنهض إلى المطبخ، لتتأكَّدَ من جرة الغاز المنزلي التي كانت قد تأكدت مسبقاً من إغلاقها أكثر من مرة قبل الآن، فالحياة قد أعطتها الخبرة اللازمة لكي لا تخسر مواردها، وكانت قبل أنْ تُغلقَ عيناها تردِّدُ بين شفتيها كلماتٍ بالكادِ تخرج، حيث يغالبها النعاس وهي تقول:

«كان يحارب إسراااا، لكنه يشتم عرفاااا، وعرفاااا يحارب إسراااا....».

حيثُ تبقى تتمتم حتى تنام، وعادةً لا يستمرُ نومها أكثر من ثلاثِ ساعاتٍ متواصلةٍ، حيث تنهضُ تتفقدُ الأبواب وجرة الغاز المنزلي من جديد، والمال الذي تخبِّئه في مكانٍ لم أستطع أن أتخيل مكانه لشدة تعقيده، حيث إنَّ التكتيك الذي أورثها إياهُ أبو حنا أعطاها الخبرة اللازمة أن تخبئ مالاً لا يستطيع روائيٌّ شاب أنْ يتخيلَ أين يمكن أن تخفيه، ثم تتكلَّم إلى الجدران حول قصصٍ بعينها وتتناقشُ مع الجدران التي أصبحت ـ مؤخراً ـ تردُّ عليها وتحاكيها.

لاحظَتْ أم حنا في الأيام الأخيرة أنَّ المستأجرين في الغرفة بجانبِ المرحاض لا يتواجدون كثيراً، فلقد كانوا ثلاثةً ثم غاب واحدٌ منهم، وبقيت ترى اثنين، الأول هو الشيطان الذي أقنعها أن تضعَ بضاعةً على الشرفة وتبيعها لكنها لا تستطيعُ أن تتذكرَ

اسمه، فقد يكون اسمه جهاداً أو مصطفى أو سليماً، على الرغم من أنها كانت تسأله عن اسمه كلَّما رأتهُ، أمَّا الثاني فقد كان ذلك الشاب الهادئ والصامت والخجول، وهو الوحيد الذي استطاعت أن تحفظ اسمَهُ وتتذكره جيِّداً، ولكن في الآونة الأخيرة لم تعد تراه كثيراً، فقد كان يرسل إليها أجرة الغرفة مع جاره كونه كان يخرجُ مبكراً إلى عمله، حيث تكون لا تزال في الفراش تتذكر ماضيها ولا يعودُ إلا حين تكونُ مع ماضيها أيضاً في الفراش ذاته.

كان أبو حنا يخطر على بالها في تلك الساعة المتأخرة قبل أنْ يُدَقَّ بابها، وبالكاد كانت تسمعُ طرق الباب، مع العلم أنَّه كان يدقُّ بأقوى ما يستطيع، فتتوجه إلى الباب وتقول في نفسها:

«من سيدقُ الآن!؟ فالمستأجرون يعلمون أنَّي لا أفتح الباب ليلاً لأحد، ربما هو لصٌّ!؟ لعنَ الله اللصوص يأتون في وضح النهار ويدقون الباب!».

ثم تعودُ لغرفتها بعد أن تتذكَّرَ أنها العاشرة ليلاً وليس وضح النهار، وأنَّ اللصوص لا يطرقون الأبواب، فتعودُ إلى جانب الباب وتفكر في نفسها:

«ربما هو متسوِّل، نعم بالتأكيد سيكون متسولاً، ابن الحرام يعمل ورديةً مسائية! كل المتسولين يأتونَ صباحاً!».

ثم تقف عند الباب لا تريد أن تفتحَهُ، لكنَّها تريد معرفة من في الخارج، قبل أن تسمعَ صوتاً خفيفاً يقول:

- «أم حنا، أنا مضطرٌ للحديث معك، أنا المستأجرُ في الغرفة الشرقية».

بالكاد تستطيع أنْ تسمعَ صوته، لكن الحياة أعطتها الخبرة اللازمة لتكون حذرةً، وعلمها التكتيك ألّا تفتح على نفسها أبواباً مغلقة، فتقترب من الباب وتصرخ بصوتٍ عالٍ:

- «هل أنت سليم، مصطفى، جهاد؟ لا أذكر اسمك! أم إنك نديم؟».

- «نعم أنا نديم، وأريدُ أنْ أخبركِ أنني سأترك الغرفة وسأغادر صباحاً، وقد أتيتُ أكثر من مرة ولم تجيبي».

سمعت أم حنا من هذا الكلام كله أنه نديم فقط، ولم تسمع باقي الجملة، لكنها فتحت الباب له، فهي تمتلك الخبرة الكافية لمعرفة المستأجرين الجيدين من الرديئين، قال نديم:

- «أعتذر منك أم حنا، الوقت متأخرٌ ولكنني يجب أن أذهب غداً ولا بد أن أخبركِ، وأسألك إذا كان يتوجب عليّ أنْ أدفع أيَّ شيءٍ إضافي».

- «لماذا ستذهبُ يا بني؟ هل الغرفة سيئةٌ أم إنَّ الجيران يزعجونك؟».

- «لا أبداً، ولكن غداً تقرَّرَ موعد سفرنا بشكلٍ مفاجئ، ولم أردِ الرحيل وفي ذمتي أيُّ دينٍ لأحد، لذلك جئتكِ ليلاً».

- «منذ أن استأجرْتَ عرفت أنك تختلف عن جميع المستأجرين

لـدي، فأنـت فعـلاً مهـذبٌ ولطيـف وصاحـب ذوق، فـأم حنـا تعـرف النـاس جيـداً يـا ولـدي، ولكـن إلى أيـن تريـد السـفر؟».

- «إلى تركيا».

- «تركيـا!!؟ لعـن الله تركيـا، ولمـاذا ستسـافر إلى تركيـا، مـاذا سـتفعل هنـاك؟ لعـن الله تركيـا ومـن بنـى حجارتهـا، تركيـا بلـدُ المجرمين يـا ولـدي، ابـقَ هنـا يـا بنـي، الأتـراك قسـاة وقلوبهـم غليظـة ويكرهـون الأجانـب، ابـقَ هنـا يـا ولـدي، هـذه البـلاد مـأوى مـن لا بـلاد لديـه».

- «يـا أم حنـا تركيـا ليسـت كـما تقولـين، إنهـا بلـدٌ كبـير ومتنـوع ويسـود فيـه القانـون، والأتـراك ليسـوا كـما تقولـين، إنهـم شـعبٌ عريـقٌ ومتنـوعٌ، ومـع ذلـك أنـا سـأتوجه إليهـا أيامـاً فقـط، ثـم سـأكمل الرحلـة إلى أوروبـا».

- «أوروبـا!!؟ ومـاذا سـتفعل في أوروبـا؟ مـاذا سـتعمل هنـاك!؟ لعـن الله أوروبـا ومـن سـكَّ نقودهـا، إنهـا بـلاد فاجـرةٌ يـا ولـدي، ومنحلَّـةٌ وتكـره الأجانـب، بـلادٌ تبلـع المسـافر إليهـا وتجمـد قلبـه فـلا يعـود يفكـر بالعـودة إلى بلـده، إيـاك أن تظـنَّ أنـك ذاهـبٌ إلى الفـردوس، فأنـت ترحـلُ مـن جحيـمٍ بـاردٍ إلى جحيـم دافـئٍ يـا ولـدي، إنهـم لا يـرون في شـبابنا غـير عبيـد وبـدو قادمـين للحيـاة بـأيّ شروط، إنهـم يرونـنا شـعوباً جاهلـةً ومتخلفـةً يـا ولـدي، وسـيتعاملون معـك باسـتحقار، ابـقَ هنـا يـا ولـدي فهـذه بـلاد مـن لا بـلاد لديـه».

لم يكـن نديـم مهيـأً في تلـك اللحظـة للخـوض بذلـك الجـدل

البيزنطي مع عجوزٍ تلعن كل جغرافيا تتحدث لها عنها، وخصوصاً أنها تظن نفسها أنها تتكلَّم الحقيقة ومن الصعب جداً الحديث مع أشخاصٍ يظنون أنهم يحتكرون الحقيقة، وأنَّ كل ما يقولونه هو الصواب، وأن كل ما يقوله الآخرون لا يمتُّ للواقع بصلة، ومع ذلك آثر نديم أن يدافع عن حقيقته وأن يكون وفياً لها فقال:

- «لعن الله البلاد التي دفعتنا لنكون عبيداً عند غيرنا، ولعن الله البلاد التي لا تستطيع إسكات جوع أهلها، ولعن الله البلاد التي يُقتل بها الأبطال ليعيش العملاء، ويموت فيها الشجعان ليحكمها الجبناء، ويحرق بائعو الخضار في الشوارع أنفسهم من أجل أن يتمتع بالحياة بائعو الأرض والوطن، لعن الله البلاد يا أم حنا التي توفر الأمان للمجرمين واللصوص وينام بها الأطفال مرعوبين، من يسمعك تتحدثين عن العبيد يقول إننا أسياد، لا يا أم حنا إذا كان ولا بدَّ من العبودية فلتكن عبوديةً من دون جوعٍ ولا قهر، فلتكن عبوديتنا من أجل حرية أطفالنا».

لم تكن أم حنا لديها البديهة الحاضرة لترد على نديم، فهي تحتاجُ وقتاً طويلاً لتحضِّر كلامها على نارٍ هادئة، لكنه سوف يذهب بسرعةٍ وليس لديه وقتٌ، لكنه سيتقمص أحد جدران بيتها، وعندها ستستطيع الكلام معه عن كل ما يدور في بالها.

يودعها بطريقة لبقة ويترك لها مفتاح الغرفة عند جاره وستبقى الغرفة فارغةً لكنه سيكون حاضراً دائماً على حيطانها.

ألودورم

فتحت عينيها، كان الطبيب يقيس لها ضغط الدم ثم يخاطب الممرضة الشقراء التي تحمل أوراقاً وقلماً، ويطلب منها أن تسجِّل أنَّ ضغط الدم أصبح طبيعياً، وكانت الممرضة تكتب كلَّ شيءٍ يقوله الطبيب بخفةٍ وسرعةٍ متناهيتين، وما إن لمحت ألفيرا وقد فتحت عينيها حتى ابتسمت ابتسامةً سريعة، وهمست كلماتٍ عدة في أذن الطبيب، الذي نظر حينها لألفيرا بابتسامةٍ عريضةٍ أيضاً واقترب منها وهمس بجانب خدها الأيسر «الحمد لله على السلامة»، حيث شعرَتْ أن أنفاسه تلامس خدها في لحظاتٍ كان لاتزال تتأكَّد أنها لا تحلم وأنها حيةٌ فعلاً في مكانٍ ما، ثم يخاطب الطبيب الممرضة التي لازالت تكتب على مجموعة الأوراق بين يديها، ويقول:

- «كلُّ شيء طبيعيّ، عليها أن تبقى مرتاحةً فهي مشوشةٌ الآن، ولن تستطيع الكلام، اكتبي هذا، وممنوعٌ أن يدخل الآن أحدٌ أو يتكلم معها أحد، والقلب والشرايين في حالةٍ ممتازة، أمَّا هي فتحتاجُ لساعاتٍ أخرى لتتكلم بشكلٍ طبيعي». ثم يتناول الطبيب الأوراق ويقرأ ما كتبته الممرضة بهدوءٍ ثم يكتب أسفل التقرير شيئاً ما ويوقع، وينظر لألفيرا ويعيدُ الابتسامة العريضة ويضع يده على جبينها ويقول:

- «لا شيءَ يدعو للقلق مادموازيل، أنتِ بخير وصحتكِ جيدة، إنني أعرفُ أنكِ لا تستطيعين الكلام فابقِي مرتاحةً».

ثم يغادر الغرفة وعندما يفتح الباب تستطيع ألفيرا أن تلمح أنطوانيت وهي تنظر إلى داخل الغرفة بلهفةٍ كأنها تريد أن تتأكَّد أن ألفيرا لا تزال في الداخل، وما تزالُ على قيد الحياة، ومعها أشخاصٌ آخرون. ومن جديدٍ تغمض ألفيرا عينيها لكنها لا تنام، تشعرُ بخدرٍ أسفل رأسها، وتسمعُ صوت جهازٍ طبيٍّ بجانبها يصدر صوتاً خفيفاً يُشبه صوت عقارب الساعة، وفي الخارج قدَّم الطبيب للضابط الموجود التقرير، وقال له:

- «لن تستطيع تسجيل أيّ إفادةٍ أو معلومةٍ الآن، فالمريضة تعاني من صعوبةٍ في النطق وانخفاضٍ في مستوى اليقظة وضعفٍ في العضلات وربما تشعرُ شعوراً وهمياً بالشلل، فقد أوضحت تحاليل الدم أنها تناولت جرعة زائدة من (النيتراريبام) وقد أدى إلى نوعٍ من التسمم الدوائي وتأثيراتٍ أخرى خطيرةٍ على صحتها».

يفكر الضابط الشاب بكلام الطبيب بهدوءٍ، ويحاول أن يفهم بعمقٍ ما يقصده الطبيب، لكي يظهر بأنه ضابطٌ ذو خبرةٍ مسلكيةٍ جيدة، وأنه يستطيع أن يحللَ بذكاءٍ ويتخذ القرارات المناسبة، ثم يقول للطبيب:

- «لقد أفادت زميلتها في الشقة الآنسة أنطوانيت أنها كانت تأخذ بعض الأدوية، ولكن لم تعرف السبب، فالمغدورة متكتمةٌ على خصوصياتها، وقد وجدنا اسم هذا الدواء في غرفتها وسجلناه في إفادة الآنسة أنطوانيت».

يـردُ الطبيـب بثقـة الأكاديمـي الـذي لا يخفـى عليـه شيءٌ وهـو ينظـر لأنطوانيـت:

- «هـل اسـم الـدواء (موغـادون، أتسـومين، أورودون، نيـترادوس، ألـدوروم ؟؟)».

تقاطعـه أنطوانيـت وهـي تضـع رأسـها بـين يديهـا وعلامـات الحـزن واضحـةٌ عـلى وجههـا الشـاحب:

- «نعـم حـضرة الطبيـب اسـمه (ألـدوروم)، وقـد أوقفـت تناولـه منـذ مـدةٍ ولا أدري سـبب ذلـك».

- «ربـما أوقفهـا طبيبهـا عـن تناولـه لأنـه يسـبب الإرهـاق والنعـاس ويؤثـر عـلى الجسـم فـترةً طويلـةً تـتراوح بـين خمـس عـشرة سـاعة وثـمانٍ وثلاثـين سـاعة، وهـو يوصـف فقـط لحـالات الأرق والذهـان الشـديدين وخصوصـاً في الاضطرابـات المرافقـة لبلـوغ سـن الحكمـة عنـد النسـاء، خصوصـاً الاضطرابـات النفسـية».

كان الضابـط يسـتمع باهتـمامٍ للـكلام، ويحـاول تسـجيل أيّ شيءٍ ليفيـده في التحقيـق ويفيـده مسـتقبلاً في خدمتـه خصوصـاً أنـه كان بحاجـةٍ لمعلومـاتٍ مـن هـذا النـوع ليفهـم بعـض الحـوادث التـي تمـر أمامـه، ثـم يقـول للطبيـب بصـوتٍ هامـسٍ:

- «هـل تتوقـع أن تكـون المريضـة تعـاني مـن اضطرابـاتٍ نفسـية، وهـل يتضـح إن كانـت تعرَّضـت لأيِّ اعتـداءٍ قبـل تنـاول الـدواء؟».

- «منـذ دخلـت إلى المشـفى قـام الطبيـب الشرعـي بمعاينتهـا

منذ وصولها صباحاً وأكد أنها كانت برفقة شخصٍ آخر وقد مارسا الجنس وشربا الكحول بكثرة، ولكن لا وجود لأيّ دليلٍ على اعتداء أو آثارٍ لكدماتٍ أو محاولة أذيةٍ جسديةٍ أو اغتصابٍ مثلاً، وأنا أُرجح أن هناك دوافع غريبة لما حدث، فالجرعة من (نيتزايبام) كانت تقدر بخمسة أضعاف الحبة الواحدة، أي إنها تناولت خمس حبات دواءٍ مرةً واحدة، وعندما نستطيع أخذ إفادتها سنكتشف كل شيء، عموماً نحن لا نتعقب جريمةً الآن، فهناك حادثة حصلت مع شخصٍ وهو لا يزال حياً وبعد عدة ساعات سنعرف كل شيءٍ».

يغادر الطبيب المكان وتبقى أنطوانيت واقفةً مع عنصرين من الشرطة، قد أمرهما الضابط أن يمنعا أحداً من زيارتها باستثناء الكادر الطبي في المشفى، وكانت أنطوانيت تشعر بالإرهاق والتعب لكنها أحست من خلال كلام الطبيب والضابط أنها فهمت كل شيءٍ، فما تعرفه لا يعرفه الطبيب ولا الضابط، حيث إنهما لا يعرفان أنها كانت تسهر مع عماد، ولا يعرفان كم كانت تخاف ألفيرا على سلامتها وسلامة جسدها، وكم هي حذرة في حياتها وتقول في نفسها:

«لقد كانت تكذب عليَّ إذن، كانت تقول لي إنَّ علبة (ألودوروم) هي فيتامينات، الآن فقط عرفتُ لماذا كانت لا تستطيع النوم وتدَّعي أنها كانت تحبُ متابعة الأفلام ليلاً، كما كانت تعاني من الاضطرابات إذن! غريبٌ أمر ألفيرا، فأنا أيضاً

أعاني من الاضطرابات ومن الأرق وأفكر بشكلٍ دائمٍ لكنني لا أتناول أدويةً مثل المجانين لأنامَ».

كانت أنطوانيت تحاول بين الحين والآخر الدخول إلى غرفة ألفيرا، لكن الشرطي الواقف على الباب ظل متعنتاً ولم يرضَ إدخالها، وكانت تأكلها الأسئلة وتريد أنْ تتأكَّد مما كانت تشكُّ به، وهل حدسها صحيحٌ أن عماد هو الذي قام بذلك وهرب، فكل المعطيات تشير لذلك، فالشقة سليمة الأبواب ومقّفلةٌ.

«إذن لقد هرب من الشرفة ولم يقتلها لكنه تركها تموت ببطءٍ تحت تأثير الدواء، لا أفهم كيف أجبرها أن تتناول أربع أو خمس حبات منومة دفعة واحدة، هل هددها بمسدسٍ؟، ولكن كلَّ شيءٍ طبيعي ولا يوجد آثار اعتداءٍ على جسدها كما يقول الطبيب، غريب أمر ألفيرا».

تقول ذلك في نفسها، ثم تتذكر صفوان فجأةً ومن دون تفكيرٍ تدق على هاتفه، وتشعر أن قلبها يدق قبل هاتفه، لكن صفوان لايزال خارج التغطية ولا تعرف ماذا حصل له، وأين يكون، فلقد خشيت أنطوانيت أن يقوم عماد بأذية صفوان أو قتله، ثم شعرت بأنها تفكر بطريقةٍ ساذجةٍ ويمكن أن يكون كل شيءٍ مجرَّد تحليلٍ فألفيرا فقط من تمتلك الإجابة على كل الأسئلة، ثم تسأل أنطوانيت نفسها: لماذا لا أتصل بعماد؟ ربما كان عماد الآن في الفندق وينتظر ألفيرا، وتتذكر هاتف ألفيرا، تتذكر أنه ليس موجوداً معها، ولم تره في الغرفة لحظة وصول الشرطة، وتشعر

أنطوانيت بالإرهاق وأنها عاجزةٌ عن الإجابة عن أي سؤال، وتقول في نفسها «سأنتظر ألفيرا»، فجأةً يدقُّ جورجي على هاتفها لكنها لا تردُّ عليه.

بلاد الأبد

سنسافر صباحاً، وكل شيءٍ سيتم بسرعةٍ ودون معرفة أحدٍ، لقد طلب مني عماد أن أقضي الليلة في مقهى أبو شبك وأن أغلق هاتفي، لا أدري ماذا يخطط لكنه يفعل شيئاً ما، ولم أعدْ أستطيع أنْ أقول له لا، فلقد كَبُرَتِ الكذبة وصار لا بد لي أن أصدقها.

لم أكن أتوقع أن ساعة الصفر للانطلاق ستكون غداً، فأبو طارق أكد لنا مسبقاً أن السفينة لن تأتي قبل شهرٍ من الآن، لكن عماد بكل تأكيد كان ينسق معه من تحت الطاولة، وربما هي سفينة جديدةٌ استطاع أبو طارق أن يصل إلى قبطانها ويدفع له لينقلنا، ورغم أن ضميري يوخزني فأنا سعيدٌ أنني سأترك هذه البلاد وأذهب إلى أوروبا، فمنذ دخولي إلى هذه الحدود اللعينة وأنا أحاول وأتأمل وأسعى، والآن حان الموعد لتحقق الأمنيات، لن أدعَ أيّ شيءٍ يقف في طريق سعادتي، فأنطوانيت ستعيش في تعاسة لأيامٍ فقط، وعندما ستفقد الأمل من عودتي سترمي أغراضي في القمامة وتبحث عن شابٍ آخر، كما يقول عماد، وأنا سأجد في أوروبا عشراتٍ من أنطوانيت، كما يقول عماد، سأعيش معهنَّ وسنخرج معاً السبت ليلاً لنسهر ونشرب البيرة ونقضي الأحد معاً، ومع أنني متأكدٌ أنني سأدفع ثمن البيرة التي سأطلبها ولن تدفع

الأوروبيات ثمن كأسٍ واحدٍ عني، ولكن يكفي أنني سأشربها في شوارع نظيفة مع نساءٍ لا يبكينَ لأسبابٍ مجهولة كأنطوانيت، ولا تتهدل أثداؤهنَّ كأنطوانيت، ويبحثن عن السعادة، السعادة فقط ولا شيءَ آخر، سأعيش معهن بطريقةٍ أبسط من حياتي مع أنطوانيت، ولن أضطر للكذب عليهنّ أو المراوغة معهنَّ، ولن أعد أياً منهنَّ بالزواج وأن نبقى إلى الأبد، في الأساس أنا هربت من بلادٍ تريد ضماناتٍ للأبد، وتريدك أن تبقى تعيساً للأبد وحماراً للأبد، وتعيش دون تغيير للأبد، وعبداً للأبد، وتتمنى السلامة لقادتها للأبد والحرب فيها للأبد والخوف بها للأبد، هربت من البلاد التي كل جدران أبنيتها مكتوبٌ عليها للأبد، وأنا لا أحبُّ الأبد، أحبُّ اللحظة الراهنة ولا أضمن مزاجي أن يبقى على حالٍ واحدةٍ لأكثر من عشر دقائق أو ربما أقل.

سأشرب كثيراً من القهوة في مقهى أبو شبك هذه الليلة كي لا أنام، سيصل نديم وعماد صباحاً، نديم سيكون نائماً بالطبع ولكن عماد لا أعرف أين سيكون، لقد أقفل هاتفه، ربما كان ينام إلى جوار ألفيرا ويقول لها سنبقى سويةً إلى الأبد، فعماد يكذب بمعدل ثلاث أكاذيب في الدقيقة الواحدة، ولا يضع قيمةً لعواطف أحد، ويمكن أن يفعل أيّ شيءٍ مهما بلغت نذالة هذا الشيء، فقد كان يخطط لإغواء امرأةٍ عجوزٍ كنا نستأجر غرفتها في بيروت، لكنها تلك العجوز كانت نذلةً أكثر منه ولا يمكن لأحدٍ أن يأخذ شعرةً واحدةً من رأسها، ثم خطط أن يقنعها كي تفتح دكاناً على شرفتها القريبة من الشارع من أجل أن يشتري لها بضائع رخيصة

ويبعيها لها بأسعارٍ باهظةٍ، ولو لم يأتِ إلى الفندق لكانت شرفتها الآن مليئة بالمواد والقطع البلاستيكية الرخيصة، حيث ستجلس طوال النهار على الشرفة دون أن ينظر أحدٌ إليها وعندها ستقول له:

- «البضاعة لا تباع يا عماد».

بالتأكيد سيقول لها:

- «التجارة بحاجة إلى صبرٍ يا أم حنا».

أما أم حنا ستبقى صابرةً حتى تموت، حين تعلم أن الصبر سيأتي لها بالمال، فعماد يكذبُ بمعدل ثلاث أكاذيب في الدقيقة الواحدة.

الرابعة والنصف فجراً

«بدأَتْ تنام بين يدي، ولم تقلْ لي إنَّ الدواء يأخذ وقتاً طويلاً حتى يؤثِّر بالجسد، فقد كانت تقول إنَّ حبةً واحدةً تجعلها تنام لساعاتٍ طويلةٍ، لقد ابتلعت أربع حباتٍ لكنها لم تنمْ. ومن الجيد أنها لم تشعر بهم، بالتأكيد لن تشعر فهي تكاد تكون ثملةً تماماً، هذه المرة شربت أضعاف ما تشربه عادةً، حتى إني أشعر بشيءٍ من الدوار ولكن لم أسمح للكحول أن يرميني بجانبها، كان عليّ أن أجعلها ترتدي ثيابها كي لا تراها أنطوانيت عاريةً، ولكن لا، لن يستطيع أحد رؤيتها، وأنطوانيت لن تستطيع أن تدخل غرفتها، ستنهض غداً مساءً عندما نكون داخل مياه تركيا الإقليمية».

ثم يقوم عماد بعد أن يترك ألفيرا وقد تأكَّد أنها قد نامت بتأثير الدواء الذي وضعه في البيرة ولم تشعر به، وهو يعلم أنها تمتلك الكثير من المال في خزانتها فقد أخبرته بذلك من قبل وأنها تخطط لشراء منزل، منزلٍ له ولها ليرتاحا من نظرات أنطوانيت، ويعيشا حياتهما ويتمتعا بخصوصيتهما، وقد قام عماد بوضع مبلغٍ من المال معها على أنَ يضع كل فترة مبلغاً آخر ليستطيعا شراء منزلٍ بدفعة أولى، وأوهمها عماد أنه يثق أنَّ ماله في المكان الصحيح ولا فرق بين جيبه وحقيبتها، وبذلك كشفت ألفيرا أمامه أين توجد

الأموال وما تقتنيه من الذهب، فلم يجد عماد مشكلة في البحث، وقام مباشرةً وسحب الأموال وبدأ ينبش عن أساورها الذهبية، فبعثر كل شيءٍ، ورمى كل شيءٍ من الخزانة على الأرض قبل أن يجدَ العلبة التي تحتوي ما يريد، وعندما انتهى لم يخرج من الباب بل أبقى كل شيء مقفلاً من الداخل، حيث أصبحت الساعة الرابعة والنصف فجراً، ففتح باب الشرفة ليترك كلَّ شيءٍ وراءه مقفلاً، وعندما ستعود أنطوانيت ستجد كلَّ شيءٍ على ما يرام، وبالتأكيد إن كلاً من نديم وصفوان قد أصبحا داخل الميناء بانتظاره.

خارج الميناء، هناك من ينتظره أيضاً ليأخذ أتعابه بعد أن تعب كل هذا التعب ليجد لهم مكاناً في أقرب موعد رحلة إلى تركيا على سفينة شحنٍ معدَّلةٍ لنقل الركاب، فالرحلة التي تنطلق بعد ساعتين من الآن كانت ممتلئةً ولكن أبا طارق أقنع ثلاثةً من زبائنه -المسافرين على متنها- أن يؤجِّلوا موعد رحيلهم ريثما تترتب لهم الأمور داخل تركيا، وبذلك أعطوا حجوزاتهم في السفينة لصفوان وعماد ونديم بناءً على طلب عماد.

لم يفهم أبو طارق إصرار عماد على السفر بسرعةٍ إلى تركيا وبهذه الطريقة غير الواضحة، كما أنه لم يفهم سبب دفع عماد لمبلغ إضافي لأبي طارق ليؤمِّن لهم موعداً في رحلة اليوم، ولم يفهم أيضاً السبب الذي دعا عماد ليمنع أبا طارق من إخبار صفوان ونديم بموعد الرحلة الجديدة.

أخذ أبو طارق المبلغ المتفق عليه داخل الميناء، وأعطى عماد

قصاصة ورقٍ مكتوبٌ عليها عدة أرقام قد يحتاجونها في مرمريس، كأرقام سماسرةٍ ومكاتب سفرٍ، وعاد أبو طارق إلى شارع المكاتب حيث يصطاد المسافرين هناك، فبعد ساعتين هناك مسافرون جددٌ، أخبر عماد أن السفينة التي ستأخذهم إلى مرمريس تدعى (ألكسندر فريندز) وهي معدلةٌ للركاب بعدما كانت مخصصةً لنقل الفحم، لكنها لازالت مسجلة أنها ناقلة في الموانئ.

بندقية بلاستيكية

لقد تسلل هذا الكائن إلى حياتي كما يتسلل النعاس إلى رأس الإنسان، وكعادة القدر حين يُعِدُّ للإنسان سيئ الحظّ كلَّ الظروف ليقع في فخِّ المصائب، تزامنَ دخول عماد لحياتي في اللحظة التي احتلَّني فيها الفراغُ واليأسُ، فجورجي الذي كنتُ أعطيه كل شيءٍ وأخطط معه لكثيرٍ من المشاريع والحياة المشتركة أصبح شيئاً فشيئاً بارداً وأخذ يتغيَّر معي، وبدأَتْ طباعهُ تتغيَّرُ وكلماته تتغيرُ وإحساسهُ ودفءُ جسدِهِ يتغير، حتى بدأت أشعرُ أنه صار ينام معي كنوعٍ من الحفاظ على العادة لا أكثر، ولم يعدْ يشتهيني كما كان سابقاً ولم يعد يغازِلني، بل أصبح كلُّ همِّه يتركز في أن يصل إلى نشوته معي، ثم يقبِّلني قبلةً باردةً ويوجه الشتائم لزوجته، ثم يستحمُ ويرحل، ثم بدأ يبردُ أكثر وأكثر بمشاعره اتجاهي حتى وصل لدرجة النفور.

وقبل أن يغادر الفندق ويكتشف مرضه في تلك الليلة بالذات، لم يعد قادراً حتى أنْ يمارس الجنس معي، مما أشعرني بكثيرٍ من الاحتقار لنفسي، وشعرت كأنني امرأةٌ لقيطةٌ ومثيرةٌ للاشمئزاز، لقد كسرنَي أمام جسدي وأنوثتي، وجعلني أنظر لنفسي كعاهرةٍ، وحينها في تلك اللحظة بالذات شعرْتُ أنَّ الموعد قد حان وأنَّ

جورجي لن يكون إلى جانبي بعد الآن، ولا بدَّ أنْ أبحث عن شخصٍ آخر.

وكعادة القدر حين يُعِدُّ للناس -أَصحاب الحظ السيئ- الظروفَ ليكتملَ التفافُ الحبل حول أعناقهم قادَ القدر عماد إليّ، ولسْتُ متأكدةً إذا كان قادُه إليّ أو قادَني إليه، ولكنني وكعادة كل الجاهلات اللواتي يغرقن في شبر ماء، غرقْتُ بهائهِ منذ الأيام الأولى لمعرفتي به، لقد هُيِّئتْ كلُّ الظروف ليستَغلني ويأخذ تعبَ عمري، فلقد أعطيتُهُ قبل أنْ يسأل ويطلبَ، كان بالنسبة لي أهمُّ ما في الأمر أنْ أستطيعَ أنْ أجرجرهُ إلى فراشي، وحينها ــ كما كنت أعتقد ــ لن يستطيع الإفلات من شِبَاك أنوثتي ولكنِّي ــ ولأني حمارةٌ ــ لم أفهمْ أنَّ من تحاول الدخول إلى حياة الرجل بجسدٍ متهدلٍ وأنوثةٍ يابسةٍ تماماً كمنْ تدخل معركةً كبرى ببندقيةٍ بلاستيكيةٍ للأطفال، لكنَّه بالمقابل كان دوماً يثير أنوثتي ويولع فتيل ناري ويشعرني أنَّني الأكثر أنوثةً وجمالاً من اللواتي حولي، كان ماهراً في الإغواء وعرف كلمة سرِّي منذ اللحظة الأولى، وفكَّ أزرارَ أنوثتي، ولكن الواضح أن جميع الجاهلات مثلي تمتلكْنَ كلمة السرّ ذاتها، وجميعهنَّ يستطيع مبتدِئ في الحب والحياة أن يقرْصِنَ أنوثتَهُنَّ، فخصائصُ الحماية لديَّ ولدى من تشبهنَنَي تكون هشَّةً في العادة، فامرأةٌ مثلي ترضى بأيِّ شيءٍ، ورجلٌ مثله يأخذ كل شيء.

في بداية دخول عماد على حياتي، شعرتُ كم كنْتُ غبيةً لقضاء كلِّ تلك السنين مع جورجي وعظام صدره الناتئة، ومزاجه الكئيب، وشعرت كمْ كنْتُ غبيَّةً أيضاً لإضاعة السنوات الماضية

التي كانت تُعتبَرُ ربعَ الساعةِ الأخيرة من أنوثتي مع جورجي، الذي لا يريدُ أن يعيش ولا يريدُ أن يموت، يريدُ فقط أن يبقى مستلقياً على الحياة لا يترُكها تمشي ولا يمشي هو،أمَّا مع عماد فتغير الأمر،فلا أنا كنْتُ حذرةً ولا هو كان غبيّاً، وبقينا كل فترة علاقتنا نعيش أجمل اللحظات وأكثرها دفئاً، حتى حين أراد أن يأخذَ كلَّ شيءٍ مني كان دافئاً، كان سارقاً دافئاً، فقد جهز كثيراً من الكحول وأدخلني في ساعات نشوةٍ متواصلةٍ وأفقدَني السيطرة على كلِّ شيءٍ، وبعد حين بدأ يضع المكسرات في فمه ويقبلني ويدخل المكسرات بلسانه إلى فمي وكنا عاريين وشعرت أنني بخفَّة ريشةٍ، وكانت تلك اللحظات هي الأجمل في حياتي وتمنيت لو يتوقف الزمن بي في هذه اللحظات من الدفءِ والشهوة والثمالة، وتمنيت لو أنني لم أستيقظ على هذه المصيبة، ولكني استيقظت من أجمل لحظات حياتي إلى أكثرها سوءاً على الإطلاق.

أرى غباشاً بيني وبين محتويات الغرفة التي استيقظت بها، صوت تكات ساعةٍ مزعجة، شعرت أنها كانت توخز أذنيّ كالأبر، وصوت رنينٍ مزعجٍ أشعره ينخرُ في عظامي، وأنفاسي ضيقةٌ وأكاد أختنق وألمٌ متنقل في كافة أنحاء جسدي وبالكاد أفتح عيني، أشعرُ بكثيرٍ من النعاس، وألمح امرأةً ترتدي بذلةً بيضاء وتبتسم بوجهي كالبلهاء ثم يتقدم رجلٌ أيضاً يرتدي بذلةً بيضاء ويقول بضع كلماتٍ في أذني لا أفهمها، أحاول أنْ أتكلَّم فأشعر بعجزٍ عن الكلام، وأنظر حولي أجدُ سريراً وسيروماتٍ وأجهزة

طبيـة ويتوجـه ذلـك الرجـل إلى البـاب ويفتحـه وبالـكاد أرى أشـخاصاً هنـاك لا أعرفهـم، ثـم أعـاود النـوم أسـتيقظ بـين الحـين والآخـر، ومـع مـرور الوقـت بـدأْتُ أسـتعيدُ الوعـي وأفكـر فيـما جـرى.

البقاء على الشاطئ

لقد رحل إذن، ترك لعنته هنا بين يدي ورحل، ترك دفتراً يشبه جثةً وكلماتٍ لها تأثير المواد المتفجِّرة ورحل... لا أدري ما هو السبب الذي جعله يسافر بهذه الطريقة، ذلك المتعجرف الذي يظنُّ أنَّ الشمس تشرق من جبينه، ذلك النرجسي الذي يظن نفسه (الدون كيشوت) ويريد أن يصل إلى قمَّة الحياة بسلَّمٍ قصيرٍ وسيفٍ مكسورٍ، يا له من رجلٍ سيئ وعنيدٍ وقاسٍ، لا أعرف من أين يأتي بتلك القوَّة ليتركني على رصيف الألم، ويرحل...!؟

ولكن عن أي ألمٍ أنا أتحدث، وطوال فترة عمله هنا لم يقبل مرةً واحدةً دعوتي خارج المكتبة ولم يقلْ لي مرةً واحدةً أحبكِ أو أريدكِ، ولا مرةً واحدةً قال لي أنتِ جميلةٌ، فعن أيّ خيانةٍ أتحدث!؟

بقيْتُ أحاولُ كل الفترة الماضية أنْ أُدخِلَهُ في قفصي، لكنَّه طيرٌ حرّ، ولا يعرف العيش في مكانٍ واحدٍ وطريقةٍ واحدة، لماذا أظلمُهُ وأقول إنه سيئ، لا إنه رجلٌ نبيل.

لم يعدني بشيءٍ، ولم يطلبْ مني شيئاً ولم يمش معي بحلمٍ واحدٍ، وبالكاد استطعت أن آخذ رقم هاتفه بعد حيلٍ عدةٍ، حتَّى إنَّه كان يصدُّ كل عروضي له بطريقةٍ لبقةٍ عامداً ألّا يجرحني، ويهينَ

كرامتي، حتى حين طلبتُ منه أن يأتي إلى منزلي عندما غادرَ أهلي المنزل، قال لي كلاماً لا يزال يدور في رأسي حتى الآن، قال حينها: «أفضلُ البقاءَ على الشاطئ، فأنا رجلٌ لا أعرف السباحة».

وكلُّ الكلام الذي كنتُ أعدُّهُ لهُ ذهبَ أدراجَ الرياح.

لم يكن هو هنا!! فجسدهُ فقط هو الذي كان بيننا، لكن قلبه وروحه سبقتْهُ وركبَتِ الأمواج قبلهُ إلى القارَّة الباردة، فهناك سيجدُ أحلامه الكبيرة، فهذه بلاد الأحلام الصغيرة والمشاريع الصغيرة والمشاعر الصغيرة، ولكن هل يستطيع أن يحقق أحلامه الكبيرة هناك وهل سيجدُ بلاداً تقبل بهِ مواطناً؟

إننا أبناء بلادٍ لا تشبهنا، وكلُّ بلدٍ نصل إليه لا نستطيع أنْ نراهُ إلّا خيمةً أو سريراً أو فندقاً إلى حين تيبس أرواحنا التي تبقى تحنُّ إلى موطن ولادتها حتى تموت.

لا أفهم كيف يرحلُ الإنسانُ من مكانٍ يلتصقُ به، قد يملُّ من البلاد وقد يتعب ويشعر أنها تظلمُهُ ولكن هل يستطيع حقاً أن يقطع حبل السرَّة بينهما؟؟ لا أدري هل هذا رحيلٌ أم انتحار؟

لكنه رحلَ ولم يترك أثراً، كان يتعامل معي كأنَّه يرتدي قفازان، وليس هناك بصمةٌ واحدةٌ من يديه على جسدي، لكن أفكاره وصوته وضحكته ونبله ونظراته الثابتة تحتل كل شيء بي، وحتى القهوة تغيَّرت طعمتها، وحتى السجائر لا دفءَ فيها بعد رحيله، وهذه المفكرة الزرقاء التي كان يقرأ لي منها كل يومٍ أيّ

قبرٍ سوف يتسع لي ولها، فالكلمات لعنة الموتى الباقية، يذهبون هم ويورطون من حولهم بكلماتهم التي لا تموت.

لقد رحل إذن، ونجح بالبقاء على الشاطئ معي وورطني بملحهِ وأمواجهِ وتياراتهِ الدافئة، ونجح أنْ يفلت من بحري ليغرق في البحر المتوسط، لكنني أخشى عليه ألّا يجيد لعبة البقاء على شواطئ المتوسط، لأنَّه بحرٌ يورطُ أكثر البحارين عراقةً بمياههِ ونسائهِ وموانئه ومدنهِ البحرية وأجساد الواقفات على شواطئهِ تنتظرْنَ البحارة القادمين من المدن الفينيقية يحملون حرير الصين، مع أنَّ طريق الحرير أصبح طريق الفحم لكنه لا يزال يحمل عبق العشاق القدامى.

الفصل الخامس

حلم بعكازتين

الرحلة ٤٦٢

يعطي قبطان (ألكسندر فرندز) أوامره للمساعد برفعِ سرعة السفينة إلى أربع عشرة عقدةً بحريةً في الساعة، أيْ ما يقارب ستة وعشرين كيلو متراً حيث تساوي العقدة البحرية أقل من كيلومترين في الساعة، وكانت (ألكسندر فريندز) تمشي بالحدِّ الطبيعي المتوسط حيث كانت تصل سرعتها القصوى إلى عشرين عقدةً بحريةً، أي كانت تستطيع أن تمشي مسافة ستة وثلاثين كيلومتراً في الساعة، وكان الركاب على متنها يحاولون اكتشاف البحر وهم داخل هذه الجغرافية الزرقاء اللامنتهية الأطراف.

وبعد ساعاتٍ من الإبحار غابت اليابسة عن النظر تماماً وأصبح الماء يحيط بكل الاتجاهات وكان كادر السفينة يتجول باستمرار بين المسافرين الذين يشعرون بمشاعر تتراوح بين الرهبة من البحر والرهبة من الوصول على حدٍّ سواء، لعلمهم جميعاً أنَّ هذا الطريق يسلكه اللاجئون مرةً واحدةً في حياتهم تماماً كمن يتجه إلى المقبرة، حيث يكون في طريقٍ يسلكه لأول وآخر مرَّةٍ، لذلك كان هناك في الطريق البحري ما يدعو المسافر ليبقى يقظاً طوال الرحلة ليرى أشياء ومعالم غريبةٍ سيراها مرةً واحدةً في حياته، ولن تتكرر هذه الدراما السوداء مرةً أخرى، فلن يدخلوا

غِمار المتوسط على أنهم فحمٌ حجري مرة أخرى، ولن يركبوا ناقلة بضائعٍ لتنقلهم سراً بجوازات سفرٍ مزيفةٍ بين قارتين، الأولى دفعتهم للموت مقابل الخروج منها والثانية تدفعهم للموت في سبيل الدخول إليها.

لكن عماد ومنذ أن خطا خطوته الأولى على ظهر السفينة، بدأت التغييرات واضحةً عليه، فهو الوحيد الذي كان دائم الحركة والسؤال وكأنَّه في رحلةٍ سياحيةٍ على عكس ما كان عليه في الميناء، حيث كان صامتاً ومنزوياً وينظر كل دقيقة إلى ساعته في انتظار بدء الرحلة.

أمَّا صفوان فعلى عكس طبيعته الفكاهية، كان صامتاً ينظر إلى البحر بكل الاتجاهات، وشارد الذهن يفكر في القادم القريب بعد ساعاتٍ من اللحظة الراهنة، كانت الأسئلة جميعها بلا أجوبةٍ، حيث كان يفكر كمْ كانت البلاد التي خرج منها سيئةً لدرجة أن تقذفَهُ في حاويةٍ لنقل البضائع، أو تراه هو السيئ ليقذف نفسه بمثل هذا الهلاك.

أمَّا نديم فكان صامتاً في الحالتين، كأنه كان يفهم كل ما يحدث، وكان يمتلك الشجاعة الكافية ليسير خطوةً إلى حلمه، كان يشعر أنَّ هواء المتوسط نقيٌّ وغير ملوَّثٍ وأنَّ النسمات القادمة من جهة الغرب التي كانت تلفحُ خدَّه، كانت كفيلةً أن تبرِّدَ روحه المشتعلة. فكل المسافرين ألقوا نظرة الوداع إلى اليابسة إلّا نديم، كانت عيناه متجهتان إلى الأفقْ حيث كان يظن أنَّ هناك (هناك

فقط) يمكنُ للخيمةِ أن تصبح وطناً، ويمكن للكائن البشري أن يكون إنساناً، وهناك فقط يمكن للكائن البشري أنْ يمارس كل ما يحلم به، يمكن أن يعيش ويتعلَّم ويعمل ويدرس ويغني ويكتبَ الشعر والرواية دون أن يشعرَ بالرعب في كل خطوةٍ ودون أن يشعرَ أنَّ في كل جدارٍ أذن، ووراء كل كلمةٍ عقابٌ وأمام كل إحساسٍ شرطيٌ وفي كل باصٍ لنقل الركاب راكبٌ واحدٌ والباقي مخبرون للدولة، هناك يمكن أنْ يمشي دون أن يشعرَ أنَّ خطوته مُراقبةٌ ويمكن أن يأكلَ دون أنْ يَشُكَّ أنَّ أفرع الأجهزةِ الأمنيَّة تعلم ماذا يأكلُ وماذا يحبُ وماذا يكرهُ، هناك على الأقلِ سيكون لاجئاً في دولةٍ وليس مواطناً في خيمةٍ أو رأساً في مزرعة.

سيكون إنساناً في مجتمعٍ ولن يكون رقماً في حديقة حيوانٍ كبيرة، وسيكون كما كان يعتقدُ شخصاً يعطي أفضل ما لديه في مكانٍ يستحقُ أفضلَ ما لديه، ورغم إحساسه بثقل الذاكرة، ذاكرة المكان الذي خرج منهُ، لكنه وما إنْ قال أحد أفراد الطاقم الفني في السفينة إنهم دخلوا منطقةَ التجارة الدولية في المتوسط، وتحرروا من المياه الإقليميَّة للدول، حتى شعرَ بنشوةٍ عارمةٍ تسري تحتَ جلده وكان يحمل دفتراً صغيراً بحجم جواز السفر يكتب عليه بعض الملاحظات، وحينها سجَّل بكلماتٍ مقتضبة : «الآن أَخْرُجُ من رحمِ الجحيم وأطلق زفرتي الأولى، الرحلة ٤٦٢»، واقتطعَ الورقة من الدفتر ووضعها في جيبه بعد أن رمى في المياه ورقةً كتبها في الميناء، ربما كان يضعُ حجر الأساس للقطيعة مع الوطن وأوراقه، وأغلقَ الدفتر وعاد لتأمِّل الجغرافية الزرقاء اللامنتهية

الأطراف، وكان يفكر أنَّ الإنسان يمكن أنْ يكون رمزاً للتغيير في عادات مجتمعه وملهماً لأجيالٍ عدة، ولكنه لن يستطيع التخلي عن عادةٍ سيئةٍ واحدةٍ لديه كالتدخين، فأشعل سيجارته وأخذ ينظر للأزرق اللامنتهي، قبل أن يهمس صفوان في أذنه : «هل كنتَ تكتب لماما ميركل، وتخبرها أننا قادمون!؟؟».

كان يحارب إسرا!!!

بعد أن تفقدت الأبواب وجرة الغاز المنزلي ومكان المال الذي تخبئه، تتوجَّه إلى السرير فهي تخاف أنْ تتأخَّرَ على نديم، حيث كانت تتخيَّل أنه يقف بجانبِ جدارٍ مقابل السرير ينتظرها، ليواصلا النقاش حول سفره إلى تركيا، وتأخذُ وقتاً طويلاً وهي تجهِّزُ قدراتها الصوتية والخطابية وأفكارها لتتكلَّم معه حول الموضوع، فتستند إلى السرير وتضع تحت رأسها وسادتين لتستطيع أن ترى الجدار جيداً وتحاول البدء بالحديث، لكنها تتساءل كيف ستبدأ، فتقول للجدار بصوتٍ عالٍ لا يخلو من القسوة والجزم:

«افهمْ أيُّها الصبي، يجبُ أنْ تفهمَ على أم حنا كلَّ كلمةٍ ستقالُ».

ثم تصمتُ وتشعرُ أنها بدايةٌ غيرُ موفقةٍ وأنَّ عليها أنْ تكونَ أكثرَ هدوءاً ويجبُ أنْ تخفضَ نبرةَ صوتها وتتكلَّم ببعضِ الحنان، فتُعدِّلُ من وضع الوسادتين تحتَ رأسها وترفعهما أكثر قليلاً وتَمُدُّ يدها فوق الغطاء، وتقول بصوتٍ متوسِّطٍ مسموعٍ ذي نبرةٍ توحي بثقةٍ وحزمٍ:

«افهم يا بني، عليكَ أنْ تصغي لأمِّ حنا جيداً، سأقول لك كلاماً مهمّاً، لماذا ستغادر من هنا، ها !! أجبني؟ لا تقلْ إنَّ

الحياة أفضل في مكانٍ آخر، وإنَّه ليس هناك عملٌ في هذا البلاد، فالوظائف شاغرةٌ والمجالات مفتوحةٌ لتجميع الأموال، وأنتَ شابٌ وقويٌ وتستطيع العمل تحتَ أيّ ظروفٍ وفي أيّ مكانٍ من البلاد، فلماذا تريدُ أن تتركَ البلاد وتذهبَ إلى بلاد الملاعين، ها أجبني!؟؟

سوف تشعر هناك بالذُّلِّ والقهرِ وسوف يتعاملون معك باستغلالٍ، وقد يقتلونك أو يعتدونَ عليك ليأخذوا منك المال، لماذا تريد أن تغادر البلاد إلى تلك البلاد الفاجرة، ها أجبني!؟».

ثم تعدِّلُ أم حنا موضعها وتسحبُ وسادةً من تحت رأسها وتخفض جسدها على السرير، بدأ النعاس يتسلل إلى رأسها وبدأَتْ تتثاءبُ وتشعر أنها أخفقت مرةً أخرى في الكلام، وربما عليها أنْ تكونَ أكثر حناناً وأكثر منطقيةً فتعود لتحاول مجدداً بنبرة صوتٍ خافتةٍ:

«يا بني، أريد أنْ أقول لك شيئاً من خوفي عليك لا أكثرْ، إنَّ ذهابك إلى تركيا قد يسببُ لكَ مصائبَ وقد تتعرضُ للسوء لا سمح الله، وعندما ستتوجه إلى أوروبا ستجدُ بلاداً ذات شوارع نظيفةٍ ومحال كبيرةٍ ونظيفةٍ وأرصفةٍ نظيفةٍ، لكنَّك لن تجد لحظةً واحدةً تنام فيها وأنتَ غيرُ نادمٍ لأنك تركتَ بلادك وأهلك وبيتك وغادرت، لماذا ستغادر من هنا، ها أجبني!؟».

ثم يغلب النعاس أكثر فأكثر على أم حنا، فتبدأ بالتثاؤب أكثر

فأكثر، لكنها حتى الآن غيرُ راضيةٍ عن أدائها وطريقتها في الكلام مع نديم، وتشعر أكثر في الإخفاق في إقناعه، فتعيد ترتيب الوسادة تحت رأسها وتعاود الكلام بطريقةٍ أخرى:

«إذا وقفت أنت وأهلك أمام مفترقِ الجنَّة والجحيم، فدخل أهلكَ للجحيم، هل تفتخرُ أن تدخل الجنة لوحدك؟ ولكني متأكدةٌ أنك تختار بسفركَ واحداً من بين جحيمين، فلماذا تريدُ أنْ تغادرَ، ها أجبني!؟ لماذا لا تريد أنْ تفهمَ (ولك ابني) أنَّ هؤلاء يكرهوننا، ويتعاملون معنا كالعبيد، ويريدوننا أن نخدمهم وأنْ نقف حراساً أمامَ أبوابهم؟؟».

ثم تتذكرُ أم حنا بابها الذي لا يحرسهُ أحدٌ، فتنهض من فراشها وتتفقد الأبواب التي أغلقتها مسبقاً مراتٍ عدة، وجرة الغاز المنزلي، وتلقي بنظرةٍ سريعة على المكان الذي تخبئ فيه أموالها، حيث كان كلُّ شيءٍ على ما يرام ثم تقرِّرُ ألّا تتكلم مع نديم هذه الليلة مجدداً، ستفتح مجدداً ملفَّ أبي حنا وتتذكر، ثم تنام على سريرها وقد هدها التعب والتثاؤب والنعاس، تبقى عيناها مفتوحتان لمدةٍ من الوقت، ثم تبدأ بالكلامٍ بشكل مسموع:

«كان يحارب إسرائيل، لكنه كانَ يشتم عرفات، لكنَّ عرفات كان يحارب إسرائيل أيضاً، ويشتم السوريين، لكن السوريين كان يحاربون إسرائيل أيضاً، لكن أبا حنا كان يشتم السوريين، لكن السوريين كانوا يقاتلون إسرائيل».

ثـم يبـدأ صوتهـا بالانخفـاض تدريجيـاً بعـد أن سـيطرَ عليهـا النعـاس، لكـنَّ الكلـمات بقيَـتْ تـتردد بـين شـفتيها

«كان يحـارب إسرااا، ويشـتم عرفـاا، وعرفـاا يحـارب إسرااا، وعرفـاا...».

الإصدار التركي

في ميناء مرمريس، لا يبذل البرغوث جهداً كبيراً حتى يجدَ ثلاثة شبانٍ سوريين قادمين على متن سفينة (ألكسندر فرندز) التي وصلت للتوِّ إلى الميناء، حيث كان هناك شبكةٌ من السماسرة تتواصل مع بعضها البعض داخل وخارج الميناء من أجل إيجاد المسافرين واصطيادهم، وقد كان يجهل المسافرون كلَّ شيءٍ في هذا البلاد، فيُعتبرون صيداً سهلاً لسماسرة مكاتب النقل البحري والفنادق.

ولم تمضِ مدةٌ طويلةٌ حتى يصلَ الشاب الطويل ذو البشرة الصفراء والوجه الذي يملؤه النمش إلى حيث يجلس الشبان في الميناء، حيث كان يتكلم العربية بصعوبةٍ وقال لهم:

- «السلام عليكم، أنا داوود بوشكاش أبحثُ عن ثلاثة سوري شباب جاي تركيا، بدو يشوف سيد موسى كلاوي، هل أنتم ثلاثة سوري شباب جاي تركيا بدو يشوف سيد كلاوي؟».

فيرد عماد:

- «نعم نحن ثلاثة شباب سوريين، أين هو موسى ولماذا لم يأتِ معك إلى هنا؟».

فيجيبه داوود بوشكاش:

- «موسى ينتظر ثلاثة سوري شباب في هازال».

ثم يمشي، فيتبعه نديم وعماد وصفوان إلى هازال، حيث كان يظنون أن هازال اسم شارعٍ أو فندقٍ فخمٍ للإقامة، فكانوا يمشون صامتين وراءه، حيث وصلوا إلى مدخل مقهى بحريّ ذي تراس صيفي تنتشر فيه طاولاتٌ خشبيَّة قديمةٌ، إضافة لكراس مصنوعةٍ من الخيزران قبل أنْ يطلَّ من باب المقهى رجلٌ قصير القامة ذو شعرٍ خفيفٍ وبشرة سمراء داكنةٍ وأنفٍ بارز، يطلُّ وهو يبتسمُ وكأنه في لقاء أصدقاءٍ قدامى وبعفويةٍ تامةٍ، يبدأ الحديث معهم بصوتٍ مرتفعٍ من بعيدٍ، حيث أخذ الثلاثة ينظرون إلى بعضهم البعض مستغربين لهذه الضيافة الكريمة، ومصدومين بالترحاب، لشخصٍ يعتبرونه من فصيلة أبي طارق في لبنان. أخذ من بعيدٍ يرحب بهم مبتسماً:

- «أهلاً أهلاً بالشباب، الحمد الله على سلـ... سلـ... سلامتكم، منذ الصبـ... صبـ... صباح وأنا أتصلُ بأبي طارق، لقد خشينا عليكم، الرحلة طويلةٌ والميناء خطـ... خطـ... خطيرٌ، وكما تعلمون الأتراك (أخوات شلـ.. شلـ... شلـ... شليتي)، يسـ... يسـ... يستغلون الغرباء».

فينظر الثلاثة إلى بعضهم بعضاً مندهشين ويهز نديم رأسه لصفوان وعماد، فقد فهمَ الجميع أنَّ موسى هو الوجه الآخر لأبي طارق، لكنه بإصدارٍ تركيّ، ولديه طريقة أخرى (وللقارئ الحق بتشكيل همزة أخرى) للتعامل مع المهاجرين. يقول له نديم:

- «سيد موسى، شكراً لحفاوة استقبالك وممتنون لك، إنما اتفقنا مع أبي طارق ـ كما تعلم ـ أننا سنبقى هنا، ريثما تستطيع تأميننا في مجموعةٍ للعبور إلى اليونان وقد...».

حينها يقاطعه موسى قائلاً:

- «الآن يا رجل؟؟ أتتكلم الآن عن السفر!؟ دعنا أولاً ندخل إلى المقهى سنتكلم كل شيءٍ في هازال، لقد طلبْتُ لكم وجبة كباب، الكباب في مر... مر... مرمريس تأكلون أص... أص... أصابعكم وراءها، وسنتحدث عن كل شيء في الداخل، أوصاني أبو طر... طر... طارق أن أطعمكم كباباً، فصف... صف... صفوان يحب الكباب، أليس كذلك؟».

وبدهشةٍ ينظر الجميع إلى بعضهم البعض، وباتوا يعلمون أنهم أمام نسخةٍ متطورةٍ لسمسارٍ يعرف عمله جيداً. وقبل أن يسأل موسى عمَّن يكون صفوان من بينهم، أجاب صفوان بابتسامةٍ عريضةٍ وغبيةٍ:

- «سيد موسى كلاوي أشكر اهتمامك بنا، نحن نعرف أننا وصلنا إلى الأيدي الأمينة».

ثم يمشون وراءه، وهو كالدليل السياحي يتكلم مع داوود بوشكاش بصوتٍ عالٍ قائلاً باللغة التركية:

- «سنطعم الحمير كباباً ونأخذهم إلى غرفةٍ في منزل العاهرة بوران».

ثم ينظر إليهم ويبتسم ويقول باللغة العربية:

- «أقول لمساعدي إنني أشعر بالفرح الشديد، لأنكم وصلتم. أقسم بالله خفت عليكم».

وعندها يهمسُ عماد بأذنِ صفوان:

- «إياك أنْ تدفع شيئاً أيها الغبي، إن الكباب على حسابهم حسب الاتفاق».

فيهز رأسه موافقاً ولا يعلم ماذا سيكون طعم الكباب في مرمريس.

القارب المثقوب

غداً موعد العملية الجراحيَّة وكلودين ستذهب معي إلى المشفى مكرهةً، هذا ما كانت تقوله ليلّا هذا المساء. للأسف بعد كلِّ هذا العمر لا أجدُ أحداً يكون إلى جانبي في مثل هذه اللحظاتِ المفصليةِ من حياتي، وللأسف أيضاً أن كلودين ستكون آخر وجهٍ أراه في حال توفيت، وأولُ وجهٍ أراه في حال بقيْتُ حياً، وضعَتْ ميلا امتحاناتها حجَّةً كي لا ترافقني إلى المشفى، وبطرس قال إنَّه لا يريد الذهاب أيضاً، فرائحةُ المشافي والأدوية تشعره بالقيء ولا يحتملها.

خطرَ ببالي أنْ أتصلَ بألفيرا علَّها تردُّ عليَّ، لن أقول لها إنني عاتبٌ عليها لأنها لم تسألْ كلَّ تلك الفترة عني، بل سأخبرها فقط بموعد العمليَّة، ولكنها تعرف بالتأكيد فستخبرها أنطوانيت، اتصلتُ بها لكنَّ هاتفها كانَ مغلقاً، واتصلتُ بأنطوانيت التي بدورها لم تجبْ على هاتفي بعد عدة اتصالات، فكل الناس تشبه بعضها عندما تطلب منهم معونةً، تظن أنَّ حولك آلافُ الناس سوف يساعدونك عندما تقعُ في حاجةٍ ثم يتناقص العدد حتى تصلَ بالنهاية أعدادهم لأعدادِ أصابعِ يدٍ واحدة، وهنا تكون

المصيبة، فخذلان هذه البقية المتبقية لكَ تمثِّلُ خذلان كلِّ سكان الكرة الأرضية.

كمْ منافقٌ هذا العالم وكاذبٌ، لا أعرف لماذا أتذكر (ديمن)، كنت أعتبره كأنه إنسانٌ، أتذكَّرُ كيف كان ينبح على كلودين عندما كانت تصرخ في وجهي، ليتَه كان مسعوراً وعضَّها وقتلها قبل أنْ تتخلَّص منه بتلك الطريقة الوحشيَّة، مع علمها أنَّ الأولاد كانوا يحبُّونه، وبطرس أصيب بالكآبة عندما قتلت كلودين كلبه الودود (ديمن)، وأتذكَّرُ كيف بدأَتْ كلودين حينها بمحاولة التلفت من الجريمة، حيث قالت إنه تعرضَ لعضةٍ من كلبٍ آخر مسعور، ولكني كنتُ متأكداً أنها وضعَتْ له السمَّ وقتلته. وعندها طلبْتُ من ميلّا أن تطلبَ من كلودين أن تتوقف عن هذا الكلام نهائياً لأن بطرساً كان يبكي كلما تكلمنا عن موت (ديمن)، وشعرْتُ يوماً بعد آخر أنها جاهزةٌ لتسميمي أنا أيضاً فهي من سلالةٍ مجرمةٍ ولديها أخٌ كان قاتلاً أيام الحرب، وكانوا يلقبونه الجزَّار وذاع صيطه أيامها وهو اليوم يعمل مرافقاً مع أحد السياسيين، ويظن أن الحرب الأهليَّة لا زالت قائمةً، وأنه باستطاعته الدخول على بيوت وقتل الناس، ملعونٌ هو ميشو.

لن أهتمَّ بها وبأسرتها بعد اليوم، وإذا كتب لي الربُّ أن أعيش سأهجرها لمكانٍ بعيد، وإذا وافقت ألفيرا سأسافر معها إلى أي بلدٍ للعيش، فهذه بلادٌ مقرفة وحياةٌ مقرفة، ويسألونك من أين يأتيكَ مرض القلب!!! من كلودين وما يعادلها من النساء اللاتي على منظمة الصحة العالمية أن تعتبرهُنَّ أمراضاً سارية وخطيرةً وفتاكةً

كاللشمانيا والكوليرا وحبة حلب والحصبة، فالحياة مع كلودين أشبه بتجربة العيش في صحراء، في أحد ضواحي جهنَّم، وحتى الأولاد صار هناك بيننا فواصلُ وحواجزُ ولم أعد قادراً على تجاوزها. إنها واحدةٌ من بين أكبر خسارات حياتي أنْ أصنع قارباً وأبحرَ به في وسط المحيط، عندما أنظر إلى أرضه أجدها مثقوبةً والمياه تبتلعني.

تناولت الكحول فقط

بدأَتْ ألفيرا تشعرُ بزوال تأثير الدواء عن جسدها، لكنها قررت التكتم على الموضوع وعدم فضح المستور، فكل الناس ستضع اللوم عليها حين تقول لهم إنَّ عماد الذي أعطاها معلوماتٍ شخصيةٍ كاذبةٍ عن نفسه قد قام بجرمٍ جنائي، إذ لا دليل على قيامه بأيِ جرم، فالواضح للشرطة وللطبيب الشرعي أنَّه كان جالساً معها وكان في جلسةٍ حميميةٍ وغادرَ دون أن يسببَ لها أية أذيةٍ في جسدها، وقد يكون باستطاعتها الادعاء عليه دون دليلٍ ثابتٍ لأنه تعامل معها بحرفيةٍ وحذرٍ.

أخذَتْ تفكر ماذا لو قال إنَّه ذهب إلى الفندق وتركها ثملةً، وهي التي أخذت حبوب الدواء وهي بحالة ثمالةٍ!! ماذا لو قال إنه تركها وذهب وهي حاولت الانتحار، وماذا لو أنه أنكر أنه سرق المال من خزانتها، أو قال إنه أخذ أموالاً له يودعها لديها. تكاد الأسئلة تُفجِّرُ رأس ألفيرا التي لا تعرف ماذا ستقول في ضبط الشرطة، لكنها لن تتورَّط بالادعاء على شخصٍ لا تعرف عنه شيئاً سوى اسمه ورائحة جسده ودفء أعضائه. يدخل الضابط إلى غرفتها، ومازال يعتريها الدوار وبالكاد تستطيع الإجابة عن

سيل أسئلته التي تتناول تفاصيل لا تتذكرها ألفيرا جيداً. يسأل الضابط:

- «من كان معكِ تلك الليلة، وهل تعرضتِ لاعتداء من قبله؟».

- «كان معي أحد أصدقائي، ولم أتعرضْ لأيَّ اعتداءٍ منه».

- «بناءً على التقرير الطبي النهائي، لقد تناولتِ كثيراً من الكحول وعدة حبوب من الدواء الذي كنت تستخدمينه، وقد أشار الطبيب إلى أنه تم تناول ما بين الأربع والخمس حبات منه».

- «لقد كنت ثملةً ولا أتذكَّرُ أيَّ شيء».

- «هل أجبرك صديقك على الشرب؟ فقد أفادت زميلتك في الشقة أنكِ لا تتناولين الكحول!؟».

- «لقد شربت بعد أن غادر صديقي المنزل، وأنا أشرب الكحول عندما أكون وحدي».

- «لكن المؤشرات في الغرفة تشير أنه تم البحث عن شيءٍ ما في الغرفة فكل محتويات الغرفة مبعثرةٌ».

- «عندما بدأ رأسي يؤلمني بحثت عن الدواء، أو ربما بعثرْتُ الغرفة عندما أصبحتُ ثملة، ثم إنني لا أتذكَّرُ كلَّ شيءٍ جيداً».

- «أليس من الغريب أن يكون إلى جانبك رجل ويتركك ويذهب؟؟ لا أفهم آنسة ألفيرا هل تستطيعين التوضيح؟».

- «حضرة الضابط، كنت برفقة صديقي وعندما غادر شربت كثيراً من الكحول ولا أتذكرُ غير هذا».

- «آنسة ألفيرا أتمنى أن تتكلمي كلَّ شيءٍ وألّا تخافي من شيءٍ، من الواضح أن الأمور جرت بشكلٍ مغايرٍ لما تقولين، فإذا كنت تخشين من أيِّ شيءٍ فأنتِ محميةٌ من القانون».

- «حضرة الضابط لقد قلت كل شيءٍ، أنا لا أريد الادعاء على أحدٍ، ما حدث لي كان فقط بسبب الإفراط بتناول الكحول، تناول الكحول فقط».

فيرد الضابط عابساً، ويوجه كلامه لمن يكتب الأقوال، مع نبرة صوتٍ تشي بعدم الاقتناع والتساؤل اكتب يا ابني:

- «الإفراط بتناول الكحول اممم!! الإفراط بتناول الكحول اممم!! اكتب يا بني ما تريد الآنسة ألفيرا أن نكتبه».

ثم يتمتم بكلام ينمُ عن استياءٍ واضحٍ، اكتب يا ابني:

- «إن الآنسة ألفيرا تقول أنها أفرطت بتناول الكحول بعد مغادرة شخصٍ ما تتكتَّم عن اسمه، وقامت بتناول حبوب عدة من دواء خاص تستخدمه للصداع، دفعة واحدة ثم قامت بقلبِ محتويات الغرفة رأساً على عقب، اكتب يا بني، ثم فتحت الشرفة وعادت إلى سريرها بعد أن أغلقت كل أبواب الشقة، اكتب يا بني».

بلادٌ بارعةٌ في الكوميديا

أتحسسُ دفترهُ الأزرق وكأنَّهُ جسده أمامي، أشعر كأنني أفكُّ أزرارَ قميصهِ عندما أفتحه، كمْ تشبه الدفاترُ أصحابها. لقد ورَّطني بأفكاره وورَّطني بكلماته، وبنظرته إلى العالم بطريقته العميقة في الفهم والتحليل، وأسلوبه الساخر والبارد في الكلام، والتعاطي مع المستجدات حتى بدأْتُ أشعر أني مستلبةٌ أمامه، أقبلُ منه أيّ شيءٍ دون تفكير، وأثقُ بشكلٍ مطلقٍ بما يقول ويعتقد ويفعل، لم يدمْ وجوده كثيراً، ورحل تاركاً بصمةً واضحةً في روحي، ووشماً أبدياً في نفسي، فهناك أشخاصٌ تعتبرهم علامةً فارقةً في حياتك وما بعدهم ليس كما قبلهم وحتى أنتَ تصبح بعدهم شيئاً آخر، فهم ينيرون الطرق الموجودة سابقاً في أعماق روحك، ويضعون شواخص ويقيمون طرقاً وجسوراً في نفسك، إنهم كشركات إعادة الإعمار يغيّرون كل شيءٍ داخلك، وكشركات إعادة الإعمار يربطونك بهم ما استطاعوا من الوقت، هكذا هو نديم رجلٌ يغزو ويرحل، يفتح المدن ويحررها ويذهب إلى مدنٍ مغلقةٍ أخرى، وعلى نقيض المستعمرين لا يطلب شيئاً، وحدها الأشياء تلحقُ خطواته.

لقد كان يقول إنَّ الكتابة أفضل ما يمكن للإنسان أن يفعلهُ، فالأحرف هي سلاحُ الفرد في مواجهة العالمِ وفي تغير العالم وفي

قلب العالم، وكان يقول دائماً إنَّ الكتابة هي أنبلُ ممارسةٍ بشريةٍ قام بها الإنسان منذ فجر التاريخ، كان يكتب كي يجدَ الحبيبة ويجد الأم ويكتب كي يجد الوطن، الوطن الذي ضاع وحين ضاع ضيَّع نديماً معه، هذا ما كان يقوله في دفتره الأزرق القابع بين يدي كشاهدةٍ على قبر الغائبين.

أقرأُ كلام نديم الذي لم يكن كلاماً بقدرِ ما كان صراخاً، صراخاً يحتلُّ الحروف وتمرُّداً يظن نفسه لغةً ودموعاً على هيئة مفرداتٍ وفراقاً على شكل عباراتٍ، وحنيناً للأندلس الجديدة وللفردوس الضائع من يدِ السوريين بعد أن صارت بلادهم أبنيةً مهدمةً وأرواحهم أرواحاً تائهةً وأجسادهم أرقاماً في نشرات الأخبار، يكتب جملةً في بداية السطر الأول «سرفانتس في بلاد بارعة في الكوميديا»، ثم يعقِّبُ كاتباً:

«هو سفري الثاني خارج حدود الكرة الأرضية، مللتُ من الانتظار، منذ ثمانية أعوام والأمواج لا تزال عاليةً، فمتى سأتابع الحلم؟!، يقولون لا يجوز أن نمارس الحلم حين تكون الأمواج عاليةً، ولكنني مللتُ الانتظار، انتظار انخفاض الأمواج.

كان سفري الأول من الريف إلى دمشق حينما كنت طالباً في الجامعة، كانت دمشق عالماً آخر، كوكباً آخر، والعالم الأول والكوكب الأول هو ضيعتي في جنوب البلاد، اعتقدت حينها أن حفَّة العالم تلي دمشق، وأنَّ آخر حدود الدنيا تلك اللافتة التي كُتب عليها (رافقتكم السلامة، محافظة دمشق) وقد اكتشفتُ بعد

أنْ أصبحتُ خارج الحدود أنَّ هذه اللافتة فعلاً هي آخر حدود الحياة.

هذا ما كان يؤكده أيضاً أحد الأصدقاء الذي وعدني أن يزورني في اليوم التالي لاتصالي به، كان هذا الكلام منذ ثماني سنوات، جاء اليوم التالي ولم يأتِ الصديق، ثم جاءت الأعوام واحداً تلو الآخر، ولم يأتِ فربما خرج قبلي من الفردوس وربما كان يجرب دور (الدون كيشوت) في بلادٍ بارعةٍ في الكوميديا...».

ثم يضع نديم أربع نقاطٍ ويكتب اسمه ويوقع تحت تلك الصفحة ويكتب تاريخ ذلك اليوم.

عبيدٌ بربطات عنقٍ

كم هي زاويةٌ حادةٌ في الحياة عندما لا تملُّ البحث عن حقيقةٍ تحولت إلى كذبةٍ، لا تدري عن أيّ شيءٍ تبحثُ ولا عن أيّ قيمةٍ، لذلك لم أفهمْ ما كان يريدهُ نديم بالضبط، لقد تعاملتُ معه بثقةٍ مطلقةٍ، وكنتُ سأسلمهُ المكتبة لإدارتها، حيث إنهُ برهَنَ لي عن قدرَته إدارة المكتبة وشراءَ الكتب والتعاملَ مع الزبائن بما يضمن استمرارية العمل بشكل جيد جداً، لكنَّه دائماً كان يتطلعُ إلى السفر خارج حدود هذه البلاد.

كان يعيش نديم في زاويةٍ مجاورةٍ للنقطة التي نعيش فيها نحن، وكانت حياته هنا كما يدّعي غيرَ قابلةٍ للتطور، ومع أنّي لا أفهم عن أي تطورٍ يتكلَّم، فقد كنت من حيث المبدأ مع فكرة الانتقال من موقعٍ لآخر لتحسين ظروف الحياة، لكن احتمالات وخيارات الشباب في بلادنا محددةٌ، فلا يوجد في هذه الدول التي نعيش فيها مناطق ذات تنميةٍ ضعيفةٍ وأخرى ذات تنميةٍ مرتفعةٍ، فكل هذه الدول مثل المرحاض لها رائحةٌ واحدةٌ وتعاني من المشاكل ذاتها ولديها الظواهر ذاتها التي تجعل الشباب يغادرون هذا المستنقع العربي.

فمن زاويةٍ، لا يشعر الشباب بعمقِ الانتماء لهذه الدول التي يعيشون فيها لسيطرة حكوماتٍ وأنظمةٍ رجعيةٍ دكتاتوريةٍ عليها، وبالتالي تحويلها إلى بؤر فسادٍ كبيرةٍ ومزارعَ كبيرةٍ تعاني من مشاكل سياسيةٍ واقتصاديةٍ واجتماعيةٍ، ومن زاويةٍ أخرى، البلاد القابلة لتربية الحلم تعطي دوافع للشباب للهجرة إليها بشتى المجالات، فالإحداثيات والمعطيات في تلك الدول تعطيك مجموعة لا محدودة من الخيارات التي تصلح للتعايش معها، كما أنَّ الاستقطاب من قبل الدول الأخرى بقبول اليد العاملة والأدمغة من مناطق الصراعات، دفعت الآلاف من الأشخاص لركوب البحر والمخاطرة للوصول إلى بلاد الفرح المطلق، كما يرونها، فالمعادل الموضوعي للهجرة أنَّ أوروبا تحتاجُ إلى عمالةٍ، وإلى عبيدٍ على هيئة بشرٍ، بشرٌ يرتدون أطقماً رسميةً وربطات عنقٍ، وهؤلاء العبيد يبحثون عن تحسين شروط عبوديتهم ولا يبحثون عن الحرية، فالتغيرُ الجذريّ والجبريّ لمن يريد الوصول إلى أوروبا هو نتيجةٌ عن انسجام المجتمع الجديد مع الدخيل، وليس قراراً مطلقاً يتخذهُ الدخيلُ.

وبناءً على فرضيّة الدخيل والأصيل، يصبح الدخيل آلةً بساعات عملٍ يحددها الأصيلُ بمقدار الحاجة، فالأصيل يعلم أنَّ بلاد الدخيل تدور عكس عقارب الساعة، وأنَّ الدخيل خاطَرَ بأغلى ما يملكُ من أجل الخلاص من وطنٍ يعيش متطفلاً على أحلامِ الدخيل، حيث تلاحقهُ تهمةُ ذلك الوطن في كل مكانٍ من العالم، لذلك فلا حاجة للبرهان أنَّ الدخيل يقبلُ سلفاً بكل

شروط الأصيل التي قد تشابه الشروط التي تسود في المكان الأول، وعليه فالانتقال من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن وطن هو تماماً انتقالٌ ساذجٌ بين مأزقين، الأولُ واقعيٌ والثاني خيالي، وهو بحث عن كذبةٍ، كذبةٍ تتحول إلى حقيقة.

لم أستطع أن أبرهن لهذا الكائن الحي أن الوطن هو الإحساس بالانتماء إلى شيءٍ تحبُّه ويحبك، تخاف عليه ويخاف عليك، وبمجرَّد أن بدأتَ تخاف منهُ ويخافُ منك، خسرْتَهُ وخَسِرَكَ.

الفصل السادس

الحزن الأبيض المتوسط

عبيد السلام ٠ جنود الحرب

أهيم على وجه الماء، تتقاذفني الأمواج ككرةٍ بين أرجلٍ اللاعبين، والطريق ليس على ما يرام وكما يقولون في العلوم العسكرية عندما يكون الطريق على ما يرام فاعلم أنك في كمين، إذاً أنا لستُ في كمين فلا أحد يترصَّدني ولا أحدَ يعرف مكاني أو يراني سوى راداراتِ الغواصات والسفن الحربيَّة التي تظنني هدفاً معادياً أو لغماً بحريّاً، حيث يصبح هذا البحر مترامي الأطراف واللامنتهي واللانهائي، أضيقَ من جيب سترتكَ، فعلى اليابسة وفي الجو وفي البحر يغدو الناس أهدافاً معاديةً في عالمٍ لا يرى الإنسان إلّا قطعة لحمٍ قابلةٍ للتجارة والصناعة والسياحةً وإعادة التدوير وإقامة التجارب.

لقد تمَّ إقحامنا في حروبٍ كثيرةٍ، وخرجنا من أرضنا وبلادنا وواقعنا بالنار والحديد، ووضعت الخرائط وسِيقَ بنا كالأغنام لنملأ الفراغات، ولتتغيَّر معالم بلادنا بما يناسب حلفاؤنا وأعداؤنا معاً، فالكثير منا غير مرغوبٍ به في مكانٍ فيه القليل منهم،هكذا ترسم السياسة الخرائط، فالسياسة ترسم ما تشاء كيفما تشاء وحينما تشاء، فيكتبون نظرياتهم ويفكرون بها ويجربون مدى فاعليتها على أطفالنا وكرامتنا الإنسانية ومقدَّراتنا، وكلُّ يوم يخرجون بنظريةٍ

جديدة لتغير معالم البلاد تبعاً لمصالحهم وتوازن قواهم وكأنَّه لم يبقَ شيءٌ ليمارسوا عليه التدمير الخلّاق سوى جدران بيتي، الذي لا أملكُ نقطة غيره على كوكب الأرض والكواكب المحيطة والرديفة والحليفة.

شرقُ أوسطٍ لا يناسب مصالحهم يخترعون شرق أوسطٍ جديداً، وشرق أدنى لا يراعي مصالحهم يلغّمون حدود دولهِ ويغيرون توزُّعَ أعراقه، ملفٌ مغلق يفتحونه، أرضٌ خاليةٌ يوجهون إليها العبيد، مكانٌ مأهولٌ يبيدون شعبه، أرضٌ مقدسةٌ ينشرون فيها بيوت الدعارة، وأرضٌ غير مقدسة ينشرون بها بيوت الله. السياسة تنشر ما تشاء كيفما تشاء وحينما تشاء، وليس المطلوب حلُّ أيّ ملفٍ ولا إطفاء أيِّ نارٍ، لقد دفع الغرب مليارات الدولارات لإشعال تلك النيران في دولنا، وتحويل هذه الدول إلى كيانات تناسبه وتناسب مصالحه، وتتناسب مع معاييره، فشجع إقامة دول على معايير طائفية، لا أدري لماذا أتكلم مثل أم حنا، ولماذا فعلت كل هذا من أجل الوصول إلى دولٍ تمارس سياساتٍ سيئةً ضدَّ بلادي، ففي النهاية، الغرب هو من يدعم السياسيين في بلادي.

أنا لا أفهم نفسي! عمَّن يجب أن أدافعَ، وعلى من يجب أن أتهجَّم؟؟ أذكرُ حين قال لي عماد مرةً في مقهى أبو شبك:

- «كفاك تنظيراً عن الوطن والوطنية، مذ خلقنا يا رجل ونحن مقتنعون وتزيد قناعاتنا أنَّ الغرب هو عدوٌ وظالمٌ وإمبرياليٌّ وتافهٌ، ومع أول فرصةٍ للفرار من بلادنا سنضحي بأرواحنا من

أجل الوصول إلى هذا الغرب، (شوف حبيبي) بالنسبة لي الوطن هو جيبي وأيّ مكانٍ تملك فيه المال تشتريه وتشتري جنسيته، وتشتري كرامتك، وتضع علمه فوق بيتك، أمَّا الوطن الذي لا نراه إلّا في التلفزيونات، والمناسبات الوطنية، حيث يرسل نساءه للسياحة في الأسواق الأوروبية وشراء أفخمِ فساتين السهرة من أسواق باريس وأمي وأمك لم تبدل جواربها طيلة عشرين عاماً هذا ليس وطناً، هذا (مزبلة) والوطن الذي يعطي لغيرك كل شيءٍ في السلام وفي الحرب يهرب قادته وتصبحُ أنت المُطالَب بحمايته وحماية قصوره التي فرَّ منها القادة إلى دولٍ تمارس عدوانها على تلك القصور هذا ليس وطناً هذا (مبغى)، أنت عبدٌ في السلام وجنديٌ في الحرب، يجوعونك من أجل أهدافٍ كاذبةٍ وحينما تحين الساعة، ساعة الحقيقة، يهربون ويطلبون من الجوعى والفقراء حماية وطنٍ كانوا القادة يسرقونه».

أتذكَّرُ كيف كان عماد يتكلمُ بمنطقٍ وكنت أفكرُ في نفسي أنَّ الأنذالَ يملكون المنطق ويعرفون الحقيقة تماماً مثلنا، مثل باقي الناس، وقد أحرجني صراحةً حينما سألني:

- «بما أنك تحبُّ الوطن، لماذا لا ترجع إلى حضنه وتحمل بندقيةً وتقاتلُ؟ أنا لا أحبُّ الوطن ولا هو يحبني، وأنا بأمسِّ الحاجة لأعيش وأعمل وأنفذ مشاريعَ تخصني وأجني الأموال، كي أعيش بسعادة في أي مكانٍ من العالم، أنا بأمسِّ الحاجة للتخلص من جرثومة الوطن، والوطن بحاجةٍ للتخلص مني».

عندها قاطعه صفوان الذي كان لا يحب الكلام في السياسة ودوماً يحرف الأحاديث ويحاول التهكُّمَ والمقاطعة بطريقةٍ ساخرةٍ حيث قال:

- «أخي عماد، أمثالك تهمةٌ للوطن، فأنت حشرةٌ في مؤخرة الوطن، أمثالك ملايين الناس ولن تقف حياة الوطن عند رأيك فيه، فالحشراتُ كثيرةٌ والوطنُ واحدٌ، ولو يسمعني الله كنت نصحتُه أن يخلق الكائنات التي تشبهك في مكانٍ خالٍ من العالم، لا يتبع لأيّ بلدٍ، وأنت وأمثالك تختارون البلد الذي ستنضمون إليه، لكن عندما تسألكم تلك البلد التي تطمح بالعيش فيها (ماذا سوف تقدم لي من منفعة؟) ماذا ستجيب؟؟ هل تظن نفسك أنكَ شخصٌ مهمٌ في هذا العالم، عليك أن تحمدَ الله أنَّ بلادنا تدمرت بالحرب لتقبل الدول الأوروبية لجوءَ الأشخاص الذين يشبهونك، فأنا لا أدري، يا رجل، فشخصٌ مثلك يا عماد، ماذا يمكن أن يقدِّم لبلدٍ عظيم كألمانيا مثلاً؟؟ وأنت بالكاد وصلت إلى الصف السادس، ولولا أنَّ إدارة المدرسة تعاطفت معك، لحُكمتَ حكماً مؤبَّداً بأنْ تبقى في الصف الخامس، ألمانيا ماذا ستستفيد من الحمير أخبرني ؟؟؟».

لستُ وحدي تافهاً!!

الـكلُّ يتحـدث بمثاليـةٍ!! لم يعـدْ أحـدٌ في هـذا العـالم يرتكـب الأخطـاء إلّا أنـا وأمـيركا!!؟

الـكلُّ إنسـانيٌّ!! والوحيـد المتوحـش في هـذا العـالم أنـا والإمبرياليَّة العالمية؟؟

والـكلُ ملائكـةٌ، والشـيطان الوحيـد في هـذا الكوكـب أنـا!!؟ وباقـي القاتلين عـبر التاريـخ أصبحـوا حمائـمَ سـلامٍ، فالذيـن أحرقـوا المـدن ودمروهـا، لا أحـدَ يتكلـمُ عنهـم ويدينونني أنـا فقـط.!!

يريـد هـذا المـأزوم والسـاذج نديـم أنْ يحاكمني ويحاسبني وكأنَّني مجـرمُ حـربٍ، ورغـمَ كلِّ الاحتياطـات التـي اتخذتُهـا لا أعلـم كيـف عـرف بـما حـدثَ بيني وبـين ألفيرا، ربـما عـن طريـق الغبـيّ صفـوان، بالتأكيـد عـن طريـق الغبـي صفـوان، وهل سيخبره الأنتربـول مثلاً؟!!

بـدأ يحـاضرني بالـشرف والكرامـة والعفـة، وعندمـا قلـتُ إنني لم أفعـل هـذا، شـتمني بلباقـةٍ فاضطـررتُ أن أقـولَ (لقـد فعلـتُ هـذا مـن أجلنـا جميعـاً) فشـتمني بلباقـةٍ أيضـاً، لم أكـن كثـيراً أكـترثُ عندمـا يشـتمني أحدهـم أو يهينني ففـي النهايـة هـي كلـماتٌ وتقـال، فلـن تحـول الكلـمات إلى أحجـارٍ كـما كانـوا يكذبـون علينـا، الكلـماتُ

لا تتعدَّى الأصوات، فالخوف الحقيقيُّ من الرصاص والبراميل المتفجرة، هكذا علمتنا الحرب في بلادنا، وعلى أي حال لقد كان جوابه جاهزاً فقال لي:

- «أتمنَّى أنْ أموتَ كلَّ يومٍ ألف ميتةٍ في لبنان على أنْ آتي إلى تركيا بمالٍ مسروقٍ من إنسانةٍ مسكينة».

بقي صفوان يضع رأسه تحت الوسادة مدَّعياً أنَّه نائمٌ، أمَّا نديم فلم يعلمْ أن المال المسروق هو لألفيرا، ربما لو علم أنَّه لألفيرا لن يكون محتداً وغاضباً إلى هذا الحد، ولو عرف ألفيرا لن يقول عنها مسكينةً، وعندما أقرِّر أنْ أناقشه بطريقةٍ منطقيةٍ يرفع الغبي رأسه من تحت الوسادة ويقول:

- «أقسم بالله أنني لم أعلمْ أنَّه سيفعل هذا، لقد اتصلتُ بأنطوانيت بالمصادفة لأنني شعرتُ أنني نذلٌ حين هربتُ من لبنان ولم أخبرها، ظننتُ أنها ستكون بائسةً وخائفةً عليّ وربما ستنشغلُ بالبحث عني، وربما ستظن أنني ميتٌ أو سجين، لم أعلمْ أن عماد فعل هذا، أقسم بالله لم أعلمْ أنَّه فعلَ ذلك مع ألفيرا، لقد دُهشت عندما أخبرتني أنطوانيت، لقد بصقَتْ عليَّ كثيراً، ونعتتني أنني سافلٌ ولقيطٌ وابن زانيةٍ، وكأنها تعرف أمي!!».

عندها قاطعه عماد بصوتٍ عالٍ يكاد يكون صراخاً ويقطع الطريق على النقاش بالقول:

- «افهما جيداً لولا أنّي أمنتُ المال لما كنا نستطيع مغادرة لبنان، لقد ورطَّتنا أيها المعتوه مع سمسارٍ (ابن حرام) وضحك

علينا، ولولا أنْ دفعت له ضعفَ ما أخذه في البداية منك، كنا مازلنا هناك».

ويشير بيدهِ إلى أنفِ صفوان، لكن صفوان يمسكُ له إصبعهُ ويقول:

- «أنتَ كاذبٌ لقد ورطتني، مشيتُ معك في خطتكَ ولم أفكر في شكل النهاية، ولم أضع في الحسبان أن تؤذي ألفيرا وأنطوانيت، فعلاً أنتَ ساقطٌ كما قالت انطوانيت».

عندها صرخ به عماد وقال:

- «الكلُّ أصبح صاحبَ أخلاقٍ الآن وأنا المذنب الوحيد!!؟ ألا تتذكَّرُ كمْ من الذلِّ كنتَ تعاني في الفندق؟ وكمْ كانت تلك المعاملة سيئةً معنا؟ الآن أصبحَتْ تلك القحبة ملاكاً وأصبحْتُ أنا شيطاناً؟؟ ماذا كنتُ حين كانت تريد أن تعطيني كل شيءٍ طوعاً؟؟ هل كنتُ شيطاناً أيضاً؟؟ لقد كانتا تتعاملان معنا كما يتعامل الذكور مع العاهرات، أيها الغبي، لقد قلتُ لكَ ذلك في السابق، كانتا تريدان فقط أن تناما معنا وأنْ نسعدهما، لقد كانتا تظنان أننا عبيدٌ وأنهنَّ أميراتٍ وسيدات مجتمعٍ راقٍ وأننا كلاب، لقد كُنَّ يشترينا بالمال ونحن نبيع أنفسنا مقابل الجنس والمنامة النظيفة، لم تكونا تنظران لنا بأيّ احترام، أيها الغبيّ، دائماً كانتا تنعتاننا أننا همجيان، أيْ إنَّنا عمالةٌ رخيصةٌ، أي إننا عمال بلدياتٍ، ولا نعرف بالأتيكيت وعادات المجتمع الراقي، كانتا تمارسنَ الابتزاز معنا دائماً وتتهكمان على أشكالنا ولهجاتنا وعاداتنا، وعندما كنت أنام

مع ألفيرا كانت تنسى كل شيءٍ وتنسى همجيتي وتصبح كالعاهرة وتريد إرضاء جسدي بأي ثمنٍ المهم أن أوصلها إلى نشوتها عندها أكون رجلاً حقيقياً بالنسبة لها، كانت ألفيرا...».

يقاطعه نديم ويصرخ في وجهه:

- «هل تظن أنك بمجرد أن مارست الجنس معها على السرير فهذا مبررٌ لتسرقها، لقد سرقتها لأنَّك حرامي لأنك سارقٌ لأنك لِصٌ، وليس لأنها تحبُّ أن ترضي جسدها، لاعلاقة لهذا بذاك، أنتَ تبحث عن مبررٍ لجنحتك، ولكنكَ في الحقيقة لصٌ، أنت لصٌ، لقد سرقتها، لا أعرف كيف ولكن من يسرق، يسرق كل شيءٍ من أي شخصٍ».

فيصرخ بوجهه عماد:

- «أنا لم أسرقْ أحداً».

لكن نديم وصفوان يجيبانه معاً:

- «لقد سرقتها، سرقت ألفيرا».

حينها وصلت الأمور بينهم لدرجةٍ عاليةٍ جداً من التوتر، ومنذ تلك الليلة غاب عماد عنهم، وستكون هذه آخر ليلةٍ لهم في منزل بوران، التي كانت تشتمهم صباحاً ومساءً باللغة التركية.

طلب عماد من موسى أن يراه تلك الليلة كي يضع نديم وصفوان في أقرب مجموعةٍ ستخرج إلى اليونان في اليوم التالي، وأغراه بمبلغٍ مالي فوق مستحقات موسى شريطة تسفيرهما مع

أقرب مجموعة، ومع أن المجموعة مكتملةٌ والقارب المطاطي الذي سينطلق غداً اكتمل الركاب فيه، ومن الخطورة أن يزيدَ عددهم عن الأربعين، لكن عماد أصرَّ في تلك الليلة على موسى مدعيّاً أنهما سيعيقان كل المشاريع المشتركة التي خطط لها عماد ووعد موسى بمشاركته بها، الأمر الذي دفع موسى للتوسِّط لدى السمسار الذي جهَّز المجموعة لوضعهم مع أربعين لاجئاً آخر في قاربٍ مطاطيٍّ لا يتسع في الحقيقة لهم، وعندما قال له موسى:

- «قد يموت أصحابك، قد يغـ... يغـ... يغرق القارب بهم، فالعدد كبيرٌ جداً بالنسبة لقاربٍ مطـ... مطـ... مطاطيّ».

- «إذا عاشوا فالحمد لله على سلامتهم مسبقاً، وإذا ماتوا فالرحمة لأرواحهم مسبقاً».

- «ألا تخاف أنْ ينـ... ينـ... ينـ... ينتقم الله منك؟».

- «أنا أساعدهم في الهجرة إلى حلمهم في ألمانيا، هذا عملي، أمَّا موتهم وحياتهم فهو عمل الله، هل تريد أنْ أتدخَّل بعمل الله سبحانه؟».

- «سبـ... سبـ... سبـ... سبحانه!!!!!».

مقدونيا

إنها مقدونيا، في السماء طيورٌ مهاجرةٌ ونحن على الأرض أيضاً مهاجرون، متعاكسون مع الطيور في الوجهة فنحن ماضون إلى البلاد الأشدّ برودةً والأكثر حناناً والطيور تهاجر صوب البلاد الأكثر دفئاَ والأكثر طعاماً والأكثر موتاً، نحتل الأرض بأرجلنا شبه الحافية كما تحتل الطيور السماء، آهٍ لو تسمع الطيور ندائي، كنت سأصرخ لها ألا تذهبَ إلى هناك، فهناك موتٌ ودمارٌ وحرب.

إنها مقدونيا والعشب الأخضر يكسو كل شيءٍ، وقوافل المهاجرين وخطواتهم ترسمُ هذا الطريق الذي نمشي عليه، ماذا يجري لو كان نديم معي، أين هو نديم الآن؟؟؟

إنه اليوم العاشر لمغادرتنا مرمريس، إنه اليوم العاشر لمغادرتنا مقر فرق أطباء بلا حدود في رودس، واليوم العاشر لإنقاذي من بين أسنان البحر، وكأنه كابوس، لا أصدق ما جرى، كمْ هي رخيصةٌ أرواح البشر وكم هم (أبناء حرام) أولئك المهربون، لقد خرجنا من مرمريس بالطريقة ذاتها التي خرجنا بها من لبنان، بالحيلة، من دون تمهيدٍ وبدون مقدماتٍ، لقد احتال علينا في لبنان أبو طارق وأخذ منا مبالغ كبيرةً زيادةً على المتفق عليه، ورمانا في سفينة شحنٍ ذات رائحةٍ كريهةٍ وأدخلنا تهريباً إلى مرمريس على

خلاف المتفق، أتذكر ذلك اليوم الذي وجدنا فيه في مقهى أبو شبك في طرابلس وقال لنا حينها:

- «لقد وعدتكم ووفيت بوعدي هذه هي جوازات سفرٍ ثلاثة وتأشيرة دخولٍ مفتوح إلى تركيا، لكنكم لن تستخدموها إلّا عند الضرورة، وستخرجون من الميناء على متن سفينة نقل بحرية وستدخلون تركيا على أنكم عمّالٌ على ظهر السفينة وهناك ستجدون من سيؤمن لكم بيتاً في مرمريس».

لكنه عاد وضحك علينا وأتى بنا في ليلةٍ ظلماء، بعد مؤامرةٍ حاكها مع ذلك النذل عماد، بعد أن عقد من تحت الطاولة صفقةً ما معه، أكادُ أجزمُ أنَّ عماد كان يتآمر علينا منذ خروجنا من لبنان، وعندما اكتشفنا أمره وأنَّه سرق ألفيرا قام بالاتفاق مع موسى البرغوث، فجاء موسى ليلاً وقال إنَّ المجموعة اكتملتْ وسننطلق خلال ساعات.

لكنَّ النذل عماد كان قد غادر الغرفة، ربما كان ذلك فصلاً في تلك المؤامرة، لم نستطع التواصل معه، ربما خرج في قاربٍ مطاطيٍ آخرٍ بأقلَّ عددٍ من اللاجئين، وبمناخٍ أفضل من المناخ الذي خرجنا به، لكنَّ الدنيا صغيرةٌ ولا بدَّ وأنَّ نتقابلَ في ألمانيا أو في السويد، الدنيا صغيرةٌ ولن أضيعك أيها النذل، المهم أن يكون نديم بخير.

لقد احتال علينا (أولاد الحرام!!)

كنا أول من ركب القارب المطاطي، حينها كان الظلام دامساً،

وبدأَتِ الناس تركب القارب وكان الجميع يؤكد أنَّ الطريق إلى اليونان ليست بها أية مشكلةٍ، فساعتان أو أكثر قليلاً وسنكون على اليابسة، وعلى خلاف ما كنا نراه، كانوا يقولون إنَّ الأمواج لا تخيف، هي هادئةٌ نسبياً كما أكَّد البرغوث، والسباحة سهلةٌ في هذا الطقس، ومنذ أول لحظةٍ رأى نديم ما يجري، ورأى عدد الذين خرجوا إلى القارب، قال لي إنها أكبر مخاطرةٍ نقوم بها في حياتنا، ثم أردف قائلاً بصوتٍ هامسٍ كي لا يثير مشاعر الباقين الذين كانوا بالأساس خائفين مما يجري :

- «إنَّنا ننتحر، هذا القارب يتسع لنصف عددنا فقط !!».

وفي تلك اللحظة، قرَّر نديم أنْ ينزل، فمسكت يده وقلت له:

- «هل جننت؟؟!! بينك وبين الحياة ساعتان، لا تخشَ شيئاً فلن نموت يا رجل، من مثلنا لا يموتون إلّا بسنٍ متأخرةٍ كي يأخذوا حصَّتهم وحصةَ غيرهم من عذاب الحياة».

حينها ابتسم لي وكانت ابتسامته هادئةً كالعادة، وكانت قد غابت عن وجهه منذ أن كنا في لبنان، بالكاد كنتُ أرى وجهه فالظلام كان دامساً، ثم صمت قليلاً وقال:

- «عزيزي صفوان، على اليابسة نحن أصدقاء بل أكثر من ذلك، فنحن كالأخوةٌ، ولكن في البحر دعنا نكن أعداءً، لذلك ابتعد عني، ابتعد عني إذا حصل أيّ شيءٍ، إياكَ أن تحاول إنقاذي أو إنقاذ أحدٍ، حاول النجاة بنفسك، بنفسك فقط، هل تسمعني

يا صفوان؟؟؟ حاول النجاة بنفسك وأنا سأفعل مثلك، فالبحر لا يتفهم صداقتنا، وفي البحر المواقف النبيلة قد تقتل صاحبها».

- «لماذا تتحدث هكذا يا رجل، ساعتان وسنكون هناك، سنكون في اليونان».

لكنّه وضع يده على فمي كي أصمت، وكلما حاولت الكلام كان يضغط على فخذي كي أصمت، كان يخشى أن نكون سبباً في انتشار الخوف بين اللاجئين، الخائفين أصلاً من البحر والعتمة والبرد والمنافي، لا أدري لما خطر على بالي في تلك اللحظات أنْ أتذكَّرَ أمَّي، تمنيتُ لو أستطيع أنْ أعودَ طفلاً وأرتمي في حضنها، بئسَ الوطن الذي يحرمنا من حضن أمنا ويجبرنا أن نعود إلى حضنه، بعد أن أخرجنا هو نفسه من حضنه، كم هو قاسٍ هذا الوطن وكم حضنه خشن وغير آمن، فحضن الوطن كحضن العاهرة مخصصٌ فقط لمن يدفع ومن يطغى ومن يحمل سلاحاً ومن يسرق ومن لديه نفوذ ومن يخون الوطن، حضن الوطن ليس جزءاً لنا، نحن لنا أقدام الوطن، بقايا الوطن، أما الأجزاء الدسمة من الوطن فملكٌ للصوص، الفقراء ليس لهم من أوطانهم إلا الصور والذكريات.

أتذكَّرُ وجه نديم حين كان يرتجف، ليس بسبب البرد إنما بسبب الحدس، فنديم مصابٌ بلعنة الحدس، وفعلاً بدأتُ أفكرُ أنه لماذا علينا أنْ نقوم بمثل هذه المخاطرة؟؟ لا أفهم كيف ركبنا المطاط المحشوَّ بالهواء، وأبحرنا من بلدٍ إلى آخر، كمْ نحن مجانين.

كانت يد نديم على رجلي، ترتجف أكثر فأكثر، وبخطواتٍ مثقلةٍ يدفع المهربون القاربَ ويشغِّلُ أحدُ اللاجئين المحرك الذي يدفع القارب، نركب الهواء ويقودنا لاجئٌ مثلنا وسيكون هو القبطان، هكذا نعقد صفقة بيننا وبين الموت، ونقدَّم لأنفسنا كل أسباب الهلاك، ونقدمُ أنفسنا وجبة فطور خفيفة لأسماك بحر إيجه، وكانت هذه آخر كلماتٍ سمعتها من نديم.

لا تخلع القفل

يبدأ صوتها بالانخفاض تدريجياً بعد أنْ هدَّ قواها النعس، وأخذتْ تقول:

«كان يحارب إسرااا ويشتم عرفاااا لكن عرفاااا يحارب إسرااا...».

ودون مقدماتٍ وبكلِّ همجيةٍ يقتحم حلمها نديم مرتدياً زيَّاً عسكريَّاً وحاملاً بندقيتهُ، ويقول لها:

- «أيتها العجوز الخرفة، لقد أصابتني لعنة كلامك، وها قد عدْتُ من منتصفِ الطريق، لم أستطعْ العبور إلى بلاد الملاعين»، ثم يستدير ويتجهُ نحو تلك الخزانة، ويفتح حربة البندقية ويحاول خلع الخزانة، فتصرخ: «إياكَ أنْ تفعلَ ذلك، إياك».

لكنه يحاول، أمَّا هي فتحاول النهوض من السرير، فتتفاجأ أنها مكبَّلةٌ بحبالٍ غليظةٍ، فتصرخ:

- «لا تفتحْ الخزانة، لا تخلعِ القفلَ، أرجوك، أرجوك يا بني ففي داخلها أفعى، أفعى ستلدغك».

لكنه لا يستجيب لها، لكنه يعجزُ عن خلعها بحربةِ بندقيته، فيتجه نحوها وقد تلطَّخَ وجههُ بالدَّم وهو يقول:

- «أيتها الملعونة، لقد عدْتُ من منتصفِ الطريق».

- «وما علاقتي أنا؟؟ أنا لم أمنعْكَ من الذهاب يا بني، ولم أخبِرْ أحداً أنك ذاهبٌ، كنْتُ خائفةً عليك فقط وحاولتُ أنْ أنصحكَ يا بني».

فجأةً! تتحررُ يداها من الحبالِ الغليظةِ ويختفي نديم، فتتلمَّسُ أعلى بطنها وصدرها ورقبتها، وتفتح عيناها فتدرك أنه كان كابوساً. ثم تحاول النهوض بخطواتٍ مثقلةٍ وتتّجه إلى الباب لتتفقَّدهُ إذا كان لازال مقفلاً أو إذا كان أحد اللصوص دخل إليها أثناء نومها، لكنها حين تجده مقفلاً، تضعُ وكعادتها المفتاح في القفل وتلف المفتاح فيه ظناً منها أنها تقفلُهُ قفلاً إضافياً لكنَّها لا تعلمُ أنها في الحقيقة قد فتحتْهُ، ومنذ أعوامٍ طويلةٍ وأم حنا تفتحُ الباب وتغلقُهُ مراتٍ عديدةً ليلاً، وعادةً ما يبقى مفتوحاً وتظن أنه مقفلٌ في حين كان باستطاعة طفلٍ صغيرٍ أن يدفعَهُ ويفتحَهُ، ولكن طيلة السنوات السابقة لم يحدث هذا. ثم تمشي إلى المطبخ لتتفقَّدَ قارورة الغاز المنزلي، فهي تخشى أن يتسرَّبَ الغاز في الليل وتختنق ويدخلَ اللصوص، وهي ميتةٌ، وينهبوا كل شيءٍ لديها، فهي لا تخشى الموت بقدر خشيتها من أن تتعرض للسرقة.

الليل باردٌ ورائحة المراحيض تملأُ الحيَّ القذر، وأصوات أطفال المستأجرين السوريين لا تَهدأُ، تقول في نفسها: «لعن الله أطفال السوريين كم يحبون البكاء». ثم تتذكر نديم وتتذكر أنَّه قد يكون جاهزاً الآن أمام سريرها ليتحدثا معاً كي تقنعه أن ينسى فكرة السفر إلى تركيا، فتذهب إلى السرير وتستلقي عليه وتضع كالعادة الوسائدَ تحت كتفيها ليتسنى لها رؤية نديم مصلوباً أمامها على الحائط المقابل وتبدأ بالكلام معه:

«انظر يا بني، أنا متعبةٌ جداً ولن أستطيع الكلام كثيراً، فلا تتعبني وافهمني، افهمني جيداً. أنْ تعود من منتصف الطريق أفضل بكثير من أنْ تضيعَ فيه، أنت شخصٌ طيبٌ وأم حنا تعرف معادن الناس جيداً، وأنت شابٌ لا يصدأُ معدنكَ، سيستأجرُ هذه الغرفة الكثيرُ بعدك، كما استأجرها قبلك الكثير، وجميعهم سيعودون إلى بلادهم وحقولهم ومدنهم ووظائفهم بعد أن تنتهي مشاكلهم، أما أنتَ إذا سافرت فلن تعودَ فمن مثلك يا بني تقتلهم أحلامهم، حيث إنهم يبحثون عن هلاكٍ لا عن وطن، فمن لا يجد بلاده في الوسادة التي ينام عليها في بيته الأول، يكون مخلوقاً يحمل لعنة ما قبل الولادة، لعنة الروح الشريدة، يا بني من مثلك هلاكهم في خُطاهم فلا تسافر ولا تبتعد».

ثم تصمت فجأةً وتشعرُ بوخزةٍ مؤلمةٍ في صدرها، فتتوقفُ عن الكلام، كما أنَّ الدفء في فراشها بدأ يغريها لتنام، فيبدأ صوتها بالانخفاض تدريجياً مع تلاشي صورة نديم عن الحائط فتقول:

«كان يحـارب إسراااا ولكـن يشـتُمُ عرفـاااا لكـن عرفـاااا يحـارب إسراااا...».

ثم تنام...

الاختطاف

بعد كلِّ هذا الغياب بدأَتِ الزهور تيبس تحت قميصها الذي كان ينتظر حلماً حافياً ويدين خشنتين. وبعد كل هذا الغياب وملازمة (لعنة نديم الزرقاء) وحروفه المكتوبة بخطٍ عربيّ جميلٍ وكأَنَّه رسمٌ في لوحةٍ فنيةٍ، وبعد أنِ اقتنعتْ أنَّ الواقعة حدثَت، وأنَّ رحيله ليس كابوساً بل حصل بالفعل وربما أصبح اليوم في مكانٍ ما من الأرض يبحث عمَّا كان يبحث عنه منذ فجر طفولته، قررَّتْ موني أن تتحدَّى اللعنة باللعنة وأنْ تواجه لعنة الغياب بلعنةِ الكتابة، وأخذتْ تتذكَّرُ كلامه حين قال لها:

«من يقرأُ يعبدُ صنَماً لكن من يكتب يصنع صنماً ليعبَدَهُ الآخرون».

لذلك ستصنع موني صنمها الذي سيحميها من لعنته ولعنة أصنامه، وستنتقم من (سرفانتس) الذي أضاع قلبه في زحمة طواحينه وسيوفه المكسورة وأضاع قلبه في حروبه الوهمية، ستكتبه لكي تغتاله، وستصفي حساباتها معه على أرق ورقها، وستقلب الطاولة على ذلِّ غيابه وإحساسها بالفقد والهجران، وستعلن قلبها منطقةً عسكريةً مغلقةً ريثما تمرُّ عاصفةُ غيابه، وستضع

مقابل رحيله دشمةً من الورق. فهكذا هم الكتَّاب يُنزِلُون على شواطئ خصومهم شتى أنواع الاستعارات والكنايات والعبارات ويقصفون الأهداف المعادية بكتلةٍ ناريةٍ مركزةٍ، حيث تكون عواطفهم حددت الإحداثيات الدقيقة في الطرف الآخر من الحزن مسبقاً.

هي موني التي ستدخل الحرب رابحةً منذ البداية، فعصيانها قلبها أبرز نتائج المعارك القادمة، وخاسرةً منذ البداية فالانتصار على الغائبين كالانتصار في مباريات كرة القدم الوديَّة، لا هو انتصارٌ حقيقي ولا هي خسارةٌ حقيقية، هو وهمٌ واستعراض عضلاتٍ على وهم، ومع ذلك تختار أن تبدأ بحبيبٍ غائبٍ تريد أن تغتال طيفه المربك وصوته الذي يعشعش في كل شيءٍ حولها، هو لم يشأ الاعتراف بها أنثى على قياس حزنه واغترابه، ولا يريد أن يقع في أيّ فخٍ فهو يعيش مع عشيقته، وعشيقته خطوته.

لا هي له ولا هو لها، ولا هو لنفسه، فهو زوادة المنفى وأناشيد الرحيل، وهي حاولت الاختطاف، اختطافه من قضيته واختطاف قضيته منه، لكنه متلاحمٌ مع قضيته التي تدخلُ في رأسه كالرصاصة في رأس قتيلٍ وتمشي به نحو حتفه ويدرك أنها تأخذه نحو النهايات، لكن الشجعان يجعلون من نهاياتهم علامةً فارقة.

حزم أمتعته وفك أزرار الشراع، وأبحر نحو حلمهِ، حلمُهُ في بلادٍ لا تأكل عشاقها ولا تحاصر أحرارها ولا تسجن كتَّابها، سيبحر نحو البلاد التي تطل عليها الشمس صدفة، وهنا تسأل

مـوني نفسـها، كيـف لهـذا الرجـل النـزق أن يعيـش في بـلادٍ منتظمـةٍ وأيَّـةُ امـرأةٍ سـوف تقاسـمه طقوسـه وليلـهُ وحزنـهُ، ومـن سـتكون أقـوى منهـا لتخطفَـهُ مـن الحلـم الـذي وصـل إليـه؟؟

مسـكينةٌ هـي مـوني، فلـو رمتهـا الجغرافيـة عـلى الطـرف الآخـر مـن البحـر المتوسـط لكانـت سـتلتقيهِ في الحلـمْ، كانـت لـه وكان لهـا لـو كانـت في جغرافيـا حلمـه، لكنهـا لا هـي لـه ولا هـو لهـا، ولا هـو لنفسـه فهـو أسـيرُ خطوتـه التـي تتعـب في مرادهـا أحلامـه، وهـو سـجينُ منافيـه.

مـا أسـوأ هـذه البـلاد التـي تسـحبُ مـن شـبابها الأحـلامَ فتدفعهـم للهاويـة، وتتركهـم بـين مطرقـة الحلـم وسـندان الواقـع، فيختـارون الرحيـل إلى الضـوء رغـم خطورتـه ويتركـون العتمـة لشـذَّاذها، شـجعانٌ هـمُ الراحلـون الذيـن يحملـون عـلى ظهورهـم أحلامهـم وحقائـب أمانيهـم وجثـث أوطانهـم، يبحثـون عـن حفـرةٍ مـا في منفـى مـا ليدفنـوا موتاهـم ويتبعـون اغترابهـم، ممزقـون هـم الراحلـون وملعونـةٌ هـي الجغرافيـا التـي منحـت الـدفء لأماكـن دون أخـرى، وملعـونٌ هـو التاريـخ الـذي أعطـى القتـلى مدافـن صغـيرةً وأعطـى المجرمـين نياشـين وأوسـمةً وكـراسي ليجلسـوا عليهـا حكَّامـاً.

كم هي وفية!!

أجريْتُ العمليَّة الجراحية بنجاحٍ، وعلى الرغم من شكوكي بقدرات المستشفياتِ والأطبَّاءِ في هذه البلادِ إلّا أنَّ العملية الجراحية نجحَتْ، لا أدري أيٌّ من القديسين تدخَّلَ ووضعَ قدرتَهُ القدسيَّةَ في جسدي الهزيل ولكنَّني أظنُّ أنَّ القديسين ينظرون إليَّ بعينِ الاحترام والتقدير للجهود الجبارة التي بذلْتُها في حياتي، فصبري على الحياة مع كلودين حجزَ لي بطاقة دخولٍ مجانيّ إلى الجنَّة، ولكنّ كلُّ ما أخشاهُ أنْ يكون الدخولُ إلى الجنة مسموحاً فقط للعائلات، سأضطرُّ حينها لتغييرِ الحجز، واستئجارِ غرفةٍ صغيرةٍ في ضواحي الجنة لتتسعَ لي ولألفيرا.

لقد ظلمْتُ ألفيرا معي وكان شكي بها بغيرِ مكانه، فقد كانت تعيش حالةً من الكآبةِ من وراء مرضي ولكنَّها لم تكن تتكلمْ، لقد كانت دافئةً جداً هذا الصباح في أولِ يوم عملٍ لي في الفندق، لقد رمت نفسها في أحضاني لحظةَ وصولي، وبين يدي بكَتْ بحرقةٍ وكانت دموعها تسيلُ على يدي وأشعر بحرارة دمعها، لقد افتقدتْني جداً، وقالت إنها عاشَتْ أسوأ لحظات حياتها حينما كنتُ في المستشفى. بالتأكيد ستكون قد خافت من أنْ أموتَ تحتَ العمليّة، لقد ظلمْتُ ألفيرا، كنْتُ أظنُّ أنها لم تعدْ تهتمُ بي

وأنها تبحثُ عن شخصٍ ما غيري ولكنَّ الحقيقة غيرُ ذلك، فلقد شعرَتْ ألفيرا بكثيرٍ من الكآبةِ جرَّاء خوفها عليّ ويبدو هذا واضحاً من لون جلدها الباهتِ ووجها الذي يبدو نحيلاً وكأنّها هي التي أجرَتْ عملاً جراحياً. رائعةٌ هي ألفيرا ووفية!

ومع أنها لم تتصلْ طيلة فترة غيابي لكنها كانت تُصلي لي، فهي تؤمنُ أنَّ التضرُّعَ لسانت ريتا قد يُؤتي ثماره في غرفة العمليات، لقد شعرَتْ بكثيرٍ من التعبِ من شدِّة خوفها عليّ كما أنها تؤكِّدُ أنَّ خوفها عليّ جعلها تدْخلُ المستشفى أيضاً، ولذلك لم تتصل بي فقد خشيت أنْ توتِّرني قبل العملية لأنها تعرف أنني أحبُّها كثيراً، كما تؤكد أنها منعت أنطوانيت من أن تقول لي أيَّ شيءٍ عن دخولها المشفى، آهٍ كم هي رائعة ألفيرا وكم هي وفية! وقلائلُ هنَّ النساء اللاتي يبقيْنَ على عهدك وحبِّكَ أثناء غيابك وألفيرا واحدة من النساء اللاتي يُعتبَرْنَ عملةً نادرةً.

تقول لي إنَّ غيابي تسبَّبَ بفراغٍ في حياتها، وإنها لم تستطعْ أنْ تتعاطى مع أيِّ شخصٍ حتى أنطوانيت ساءت علاقتها بها، خصوصاً بعد أن حدث مع أنطوانيت أمرٌ رهيبٌ حيث إنَّها، كما تقول ألفيرا، تعرَّضتْ لانتكاسةٍ كبرى في حياتها بعد أنْ رحل عنها صفوان إلى تركيا، وقد أكدَتْ لي ألفيرا أنَّ صفوان عُرِفَتْ حقيقتُه حيث كان لصَّاً محترفاً وكان يمثل على الجميع طوال فترة عمله بالفندق، فقام باستدانة مبلغٍ كبيرٍ من أنطوانيت وهرب إلى تركيا دون إخبارها بذلك، كما أنها حذرتّني أنَّ الأمرَ سريٌّ جدَّاً وأن أنطوانيت لم تقل لألفيرا ذلك إنما ألفيرا اكتشفت ذلك

لوحدها وحذرتني ألفيرا ألّا أتفوه بأيِّ كلمةٍ لأنها تخشى من أن تخسرَ أنطوانيت، وبالتأكيد أنا لن أقولَ لها أيّ كلمةٍ فأنا سأراعي إحساسها وسألتزمُ بالسريّة التامة، أهٍ كم هي رائعةٌ ورقيقةٌ ألفيرا!! وكم هي وفيَّة!!

كم هو غبيّ!!

لم يعد هناك وقتٌ لأتعلَّمَ دروساً من الحياة، فأنا امرأةٌ خرجْتُ من مدارس الراهبات كما دخلتُ، بدماغٍ مغلقٍ وتحصيلٍ دراسيٍّ سيئ للغاية، وخرجْتُ من مدرسة الحياة بنتائج أكثرَ سوءاً وكارثيّةً وخرجتُ من مدرسة الحبِّ بخسارةٍ توازي الخسارتين معاً، لن أكونَ غبيةً مرةً أخرى ولن أرمي كلَّ أوراقي تحت أقدام رجلٍ، سأعطي فقط جزءاً صغيراً جداً من الذي سآخذه بعد الآن، وسآخذُ قبل أنْ أعطي، لن أرمي جسدي على سرير جورجي كما في السابق، لن أكونَ رخيصةً بلا ثمنٍ، سأكون رخيصةً بثمن، سأحتقره كي يبقى ورائي، وسيكون مجبوراً أنْ يحترمَني ويخاف من ردات فعلي، لقد تعوَّدَ جورجي أنْ يكون غيرَ مبالٍ بي وبمشاعري، يهمهُ فقط أنْ يمارس الجنس معي، حتى الجنسُ أصبحَ عادةً لديه، وليس متعةً كما في السابق، وخالياً من أي أشكالِ الحب.

سأقلبُ الطاولة وأعيدُ هيكلةَ العلاقة بما يناسبني أنا، أنا من سيقودُ القارب بعد اليوم ولن أتعلَّقَ بقشةِ رجلٍ بعد الآن، سيأتي غداً وسيبدأ العمل من جديدٍ وأتوقَّعُ أنْ يكون عاتباً جداً، لكنِّي لن أسمح لعتبه أنْ يطفو على السطح فمباشرةً سأحتضنُهُ وسأحاول البكاء على يديه فهو عاطفيٌّ جدَّاً وبالتأكيد سأستطيعُ

النجاح بالهرب للأمام معه وسأقول له إنني تعبْتُ لغيابه وإنني وهنْتُ خوفاً عليه وبالتأكيد سأنجحُ، فهو غبيٌّ جداً فالعاطفيون أغبياءٌ، أغبياءُ جداً هذا ما استنتجتُه بعد عماد. وأنا وجورجي غبيان لكنَّه أغبى مني قليلاً، وسيصدِّقُ أنَّي دخلْتُ المشفى خوفاً عليه، فهو سيظنُّني الآن أنني لم أعدْ مهتمةً به وعندما سأقول ما لديّ سيشعرُ أنّني كنتُ وفيةً لهُ وسيشعرُ بتعذيبِ الضميرِ ولكني سأقنعُهُ أنَّه في غيابه صارَ وجهي باهتاً وجسدي نحيلاً، فالهمُّ يقتلُ أصحابَهُ، هكذا سأقولُ لهُ وكاد غيابهُ يقتلني، فجورجي طيَّبٌ وغبيٌ والطيبون والأغبياءُ عاطفيون جداً، أحمُدُ الربَّ أنَّهُ لم يعرفْ أيّ شيءٍ بخصوص علاقتي بعماد، هو يعرف صفوان فقط، ولنْ يتجرَّأْ أنْ يسألَ أنطوانيت فهو كاتمُ أسرارٍ جيدٍ، وكذلك أنطوانيت لن تقولَ لهُ شيئاً ليس لأنني طلبْتُ ذلك، وليس لأنها تحبُّني بل لأنها تريدُ أن تحافظ على خطوط التماس بيننا، وتريدُ أن تعيشَ كلٌ منا كما تشتهي، فهي تكرهُ تدخلاتي لذلك لن تقول أي شيءٍ لجورجي.

جوني هو الذي يعمل مكان صفوان الآن، وهو شابٌ وسيمٌ وهي امرأةٌ تحب الشاب الوسيم، لكنَّهُ متعجرفٌ جداً، وهي منذ أن بدأَ العمل معنا أخذت تهتمُ بأناقتها أكثرَ وأكثر، ومنذ اللحظة الأولى التي رأيتُ فيها نظراتها إليه عرفتُ أنها تحاول أنْ تصيْدَهُ، فأنطوانيت خبيرةٌ برمي الشِّبَاك وأنا كذلك خبيرةٌ، لكن من المؤسفِ أنَّه لم يعد هناك وقتٌ لأصطادَ أحداً، ولم يعدْ هناك ما يمكن صيده مثل السابق، هذه هي القناعة التي جعلتني أعود

لصياغة علاقتي بجورجي، فجورجي طيبٌ وغبيٌّ ويقبلُ كل شيءٍ ولا يعترض، وأحياناً أشعرُ أنَّ هدفَهُ الوحيد في الحياة أنْ لا يموتَ، ولكن يبقى وجوده فوق سريري أفضلَ بكثيرٍ من وجود الهواء، حتى ولو تحوَّلَ إلى رجلٍ فاترٍ وخائرِ القوى، فامرأةٌ مثلي تبحثُ فقط عن الحدود الدنيا لكلِّ شيءٍ. ولكلِّ وقتٍ حدودٌ دنيا تبحثين عنها، وعندما تعلكُكِ الحياة وتبصُقُكِ لن تبقي خياليّةً ولن تبحثي عن فرسانٍ وجيادٍ ورجالٍ من اللهب.

يكفي لكِ وأنتِ هكذا، في ربع الساعة الأخيرة من أنوثتكِ، يكفي لكِ جورجي، فهو طيّبٌ وغبيٌّ وسيجدكِ ورقةً رابحةً على طاولةٍ خاسرةٍ، فلكلِّ امرأةٍ حُلمٌ وجورجي وفراغٌ، وعلى اعتبار أنّني فهمْتُ من الحياة الكثير، ورسبْتُ في جميع الامتحانات التي تؤهلُني لأكونَ امرأةً ذكيةً تحترفُ الحياة، بقي لديّ الخيارُ بين الفراغِ وجورجي.

الحلم انتهتْ صلاحيتُهُ بانتهاء صلاحيتي أنا، وصلاحيةِ أنوثتي، وأنا أكرهُ الفراغَ كثيراً، ولدَيَّ جورجي، وجورجي غبيٌّ وطيبٌ ونستطيعُ أن نكملَ معاً.

حيطان برلين

مع واقع الفوضى السائدة المتناقضة بشكلٍ صارخٍ مع شروط الحياة بحدِّها الأدنى من الكرامة البشرية، ومع كل هذه الزوايا الحادة التي تصبح يوماً بعد يومٍ الموقع المطلقَ لأحلامِ الشباب في بلادنا، ومع ضآلة احتمالات التطوّر والتغيير الجذريّ في الشكل القائم، ومع فشل الإدارات والأنظمة الحاكمة في هذه البلاد على إيجاد فرصٍ للبشر في العمل والحياة وانعكاس كل ذلك على آمال الشباب المتقدِ بالطاقةِ القابلةِ للتجدُّد، تَشكَّلَ في مجتمعنا حقدٌ طبقيٌ ومشاكلُ اجتماعيّةٌ نتيجة إدارة الموارد الفاشلة، ومع ذلك كان كلامُ نديم ومنطقِه حول الهجرة أكثر عقلانيةً وأوضح برهاناً من كلامي، حيث كان يعتقد أن الحلَّ الفرديّ جزءٌ من الحلِّ الجماعي، وأن الهجرة هي تغريدٌ خارج السرب وقد يصبحُ المغرِّد خارج السرب بوصلةً للسربِ بأكمله، والنجاة بمفردك أفضلُ من الاحتراق مع الجماعة، في بوتقة الموت والحرب والعنف وحروب الوكالة التي تخوضها دول المنطقة نيابةً عن بطون القوى الدولية، وكما كان يقول:

«أنا لا أفهم الجغرافيا بمنطق الشرق والغرب والشمال والجنوب، في النهاية اليابان في الشرق ولكنها أكثر دولةٍ متحضرةٍ

في العالم وبين الدول المحيطة بها في مجال العلم والاقتصاد والقوانين، ومن أكثر الدول قابليةً ليتطور الإنسان فيها وبقدراته، فلا علاقة للجغرافيا بالتقدُم ولا علاقة بين اللجوءِ والوضعِ الحضاريّ للدول التي يهرب إليها الناسُ، فاللجوء ليس ظاهرةً متعلقةً بالظروف المناخية، بل هي هربٌ من ألمِ تلك الصفعةِ التي تعرض لها سكانُ هذه المنطقة، إنَّها صفعةٌ تتلقاها الشعوب مرةً واحدةً في تاريخها، فإمَّا أنْ تنهارَ وإمَّا أنْ تربِّي مناعةً، لكن أستاذ شوقي المصيبة التي تعرض لها الوطنُ أكبر بكثيرٍ من أنْ تُصَنَفَ على أنَّها أزمةٌ وأحداثُ عنفٍ وحربٌ وثورةٌ وحراكٌ شعبي، لقد تحولت إلى أزمة مفاهيم وانتماء وأخلاق، واتضحَ أن الجميع مجرمون، والجميع لا يعرف الوطن إلّا في الجريدة، لذلك هربَ اللاوعي الجماعيُّ وأرادَ النجاةَ بنفسه من معاركَ نحن لنا شرفُ أنْ نكون أدواتٍ فيها فقط، أمَّا اللاجئ فأنا أفهم أنه حالياً ليس إلا محركاً لنمو الاقتصاد العالمي، لأنَّه عمالةٌ رخيصةٌ وجاهزةٌ من جهةٍ، وورقةُ ضغطٍ سياسيٍ من جهةٍ أخرى، فالعالم لم يقمْ على الأخلاق في حضارته، فالأخلاق والقيم ينادي بها الأفراد فيتلقاها السياسيون لتكون عناوين براقةً لتمريرِ المصالح الضيَّقة أو الواسعة للدول، فتكون عناوين على لافتات يافيطاتهم الانتخابية». كان نديم يفهم جيداً في السياسة ويعرف ما يفعل، ويدرك أنه ذاهبٌ إلى (كامب) أو إلى غرفةٍ مسبقة الصنع، تقيمها إحدى الحكومات الأوروبيَّة، وسيتمُ مع الوقت تأهيله باللغة وتدريبه في سوق العمل والتحاقه بمعامل بحاجةٍ لعمال، وسيحصل على إقامةٍ دائمةٍ وعلى حياةٍ سعيدةٍ وسيشعر بالحنين إلى الموطن، الحنين لا أكثر، ولكنه لن

يفكر بالعودة بشكلٍ قاطعٍ لأنَّه في مكانٍ غير محدود الإمكانيات، يستطيع من خلاله استغلال أقصى حدود طاقته بالشكل الأمثل، ونديم على قناعةٍ تامةٍ بأن اللجوء ليس خياراً وأنا أوافقه في ذلك، فهو يقول إنَّ اللجوء حالةٌ قهرية ولكن الظروف الدولية اليوم جعلت من اللجوء حالةً إعلاميةً وإعلانيَّةً للدول المستضيفة أمام الرأي العام العالمي، فالمهاجرون إلى أوروبا دفعوا آلاف الدولارات للوصول إلى هناك في حين كانوا يستطيعون الإقامة في مناطق آمنةٍ مجاورةٍ لبلادهم بأقلِّ التكاليف، وقد يكون الظاهر واقعياً، لكن المضمون غير واقعيٍ فالمهاجرون إلى أوروبا هم أبناء الطبقة الوسطى، المتعلمون وأصحاب المهن الحرة وأصحاب الخبرة في الحياة وسوق العمل، أوروبا تغيرُ الإنسان ونديم طموحٌ ومن المفترض أنْ يعيش مستقراً في أوروبا، بالتأكيد سيحاول أنْ يكملَ دراسته فأوروبا تعطي الفرصة لذلك، وقد يتخرج من تلك الجامعات ويعمل عملاً مشرفاً ومحترماً، وحدنا هنا سنبقى نبتلعُ الشعارات، (الوطن بحاجةٍ لنا، والدفاع عن الوطن، والذود عن حدوده)، وحتى الذين يطرحون تلك الشعارات يهربون من أول مواجهةٍ بين الوطن ووطنٍ آخر.

أتساءل كيف لا يريدون من العرب الهجرة والبقاء في بلادهم؟؟ فسياسات الغرب أصلاً مرسومةٌ لإفراغ الدول من مقدراتها!! أتساءلُ كيف لمنظوماتٍ سياسيةٍ تصل للحكم بدعم الدول الغربية، وليست شرعيةً وليستْ من اختيار الشعوب، كيف لها أن تستطيع أن تبني وطناً وتصنع إنساناً يحميها؟؟؟ فهي

في الجوهر أولُ من يهدم تلك الأوطان، فتلك الحكومات أول من يهدم الأوطان، ليس فقط بالصواريخ وقذائف الدبابات والبراميل والقنابل يتمُّ تدمير الدول، بل بوصول أنظمةٍ مستوردةٍ كعلبة السردين إلى الحكم، فهي التي تهدم الدول والأوطان والمجتمعات.

فعلاً الجلوس كئيباً بجانب حائطٍ في برلين أفضل من الوقوف سعيداً بجانب حائطٍ في هذا البلد مكتوبٌ عليه (أبو علي لشفط الجور الفنية، وبحبك يا سميَّة للأبد، وكلكم حرامية، وخائناتٌ لو عبدوك)، فالبلاد الأوروبية تخلصت من كثيرٍ من أمراض الأفراد ومظاهر المجتمع البدائية، حتى إنهم ينظرون إلى السلطة على أنها مسؤولية وخدمة متعبة للمصلحة العامة، وليست ثواباً أو منحةً أو منفعةً، ينظرون إلى كل شيءٍ من زاويةٍ مغايرةٍ للزاوية التي ننظر نحن من خلالها، الغرب تطور حين استثمر بالبشر، ونحن لا نزال ننتظر أبو علي (ليشفطَ) الجورة الفنية العربية الممتدة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، فالبلاد التي نعيش فيها تتشابه أنظمتها السياسية الديكتاتورية الحاكمة بأنظمة الصرف الصحي.

حذرني أبو طارق

لقد بلاني اللهُ بهذا الرجل المحتال، وبعد كل عمليات النصب التي قمتُ بها في حياتي، قام الله بالسداد مني بضربةٍ واحدةٍ وعن طريق شخصٍ واحدٍ، ربما نحن النصابين والمحتالين لسنا أذكياء كثيراً إنما ضحايانا هم الأغبياء جداً، لكن أنْ يحتالَ محتالٌ على رفيق له بالحرفة ذاتها فهذا من الأمور التي قد تكون غريبةَ شيئاً ما، فلقد احتال عليّ ذلك التّافهُ، المدعو عماد طه منذ الأيام الأولى لمجيئه إلى مرمريس، بعدما أتى من طرابلس في لبنان عن طريق أحد الشركاء هناك ويدعى أبا طارق، وكان معه شخصان سوريان، الأول صفوان والثاني نسيت اسمه، لكنني أتذكر أنني لم أسمع صوته سوى مرةٍ واحدةٍ أو اثنتين، حيث إنه قليلُ الكلام.

أقنعني عماد بعد وصولهم أنْ أضعَ رفيقيهِ مع مجموعةٍ ستنطلق قريباً، ومع أنها كانت مجموعةً مكتملةً والقاربُ المطاطيُّ لم يكن يتسعْ لنملةٍ إضافية، قمت بالحديث مع المهرِّب الذي طلب مني مبلغاً مالياً إضافياً عليهما، فقام عماد بدفع ذلك المبلغ زاعماً أن وجودهما في مرمريس سيكون حجر عثرة أمامه وأمام أيّ عملٍ سيقوم به في مرمريس، وتم ذلك فعلاً وبدأ عماد بالعمل معي منذ ذلك الحين في مقهى هازال وميناء مرمريس.

تعرَّف عماد على المجموعة التي أعمل فيها والتي يديرها المعلم (بهجت أوزاي) الذي يستثمر مقهى هازال، كذلك تعرف إلى داوود بوشكاش وتعلم اللغة التركية في وقتٍ قياسي، وفي وقت قياسيّ أيضاً نال رضا المعلم بهجت، فأعطاه محلاً صغيراً بجانب المقهى ليفتحه كفرنٍ للمناقيش بعد أنْ أقنع المعلِّم بهجت أن فرنَ المناقيش يأتي بالزبائن إليك دون الحاجة للبحث عن الزبائن وأثبت عماد قدرته الفائقة في إقناع السوريين القادمين من لبنان ليكونوا ضمن المجموعات التي يؤلفها، وصار خلال أقل من ستة أشهرٍ الاسم الأكثر لمعاناً بين سماسرة الميناء القدامى، إضافةً لعلاقته المميزة بالمعلم بهجت والتي منعت كثيراً من أعدائه من الاقتراب منه أو أذيته، كان عماد كالساحر عندما يتواصل مع أحد الزبائن فلا بدَّ له أنْ يقنعه بالسفر من خلال مجموعته حيث كان يعرف السوريين أكثر منَّا، ويعرف كيف يقنعهم فكان يصيد اللاجئ بمنقوشة زعترٍ وبسمةٍ وبضع كلماتٍ عن دمشق أو حلب أو السويداء أو حمص، كان يعرف سكان كل منطقة في سوريا، ماذا يحبون وماذا يكرهون، لذلك كان اللاجئون يتمسكون به كقشةٍ في بحر الغربة، في محيطِ كل شيء فيه غريباً وجديداً عليهم، وهذه القدرات أعطته موقعاً مميزاً عند المعلم بهجت الذي أخذ يقربه منه شيئاً فشيئاً على حسابنا نحن، حيث كان يقول لنا المعلم بهجت بلغة تركيةٍ خشنةٍ ومصطلحاتٍ تشبه وجهه:

- «أخوكم عماد يعمل معنا منذ وقتٍ قصيرٍ ولا يغيب عن عمله، ولا يتناول الحشيش، وكل يومٍ يأتي بأربعة أو خمسة زبائن،

هل تعلمون لماذا؟ لأنه صاحب دماغ مفتوح، فأخوكم عماد مثلكم يأكلُ خبزاً ألا تشعرون أنكم تأكلون علف أبقار، عندما تبقون أياماً عدةً دون أن تأتوا بزبونٍ واحدٍ».

وعندما أحاول الكلام والنقاش يبقى عماد صامتاً لا يتكلم، أقول:

- «معلم بهجت الفر... فر... فرن هو من يأتي بالزب... زب... زبائن، إننا طوال النهار نحاول إقناع المسافرين، لكنَّهم يريدون أن يأكلوا ولا يريدون أن يش... يش... يشخّوا، فاللاجئون جميعهم بخلاء، ويحاولون السفر بأقل تكلفة ونحن كالشر... شر... شر..».

لكنه يقاطعني وينعتني أنني بنصف لسان ويشتمني قائلاً:

- «أنتَ تختلقُ المشاكل لنفسك أيها البرغوث اللعين، منذ بدأْتَ العمل معنا وأنتَ على حالك، زبائنك قِلَّة ومشاكلك كثيرةٌ، وكالشراميط لا تهدأ في مكانٍ واحدٍ وكل يومٍ في شارع تضيِّعُ الزبائن، والزبائن يضيعونك، وعندما تجد في جيبك مؤونةَ حشيشةٍ لأسبوعٍ تتوقف عن العمل، والكلب الآخر بوشكاش يفعل ذلك أيضاً، ويصاحب إحدى العاهرات الغجريات، ويصرف عليها أمواله، وعندما تنتهي أمواله يعود ليعمل».

ثم يصرخ بوجهنا ويطردنا دون أن نستطيع التفوُّه بكلمةٍ واحدةٍ ويبقى عماد معه داخل المقهى. ومنذ ذلك اليوم صار لا بدَّ لنا أن نتخلَّص منه، لقد سلبَنَا رضا المعلم وسيسحَبُ البساط من تحت أرجلنا، أقول لبوشكاش ونحن نتوجه خارج مقهى هازال:

- «لقد حذرني أبو طر... طر... طارق منه قبل أن يأتي إلى هذا البلد، علينا التفكير جدياً بطريقة لجعله يذهب إلى أحد أزقة جهـ... جهـ... جهنم وإلّا سنضطرُّ أن نترك مر... مر... مرمريس إذا بقي الحال كذلك، أو نعمل كصبية تحت يدِ هذا الكلب».

فيجيب بوشكاش:

- «إنتي واحد حمير، واحد ما بيعرف تفكير،انتي واحد جبتي واحد خليتي واحد سوري اثنين سوري يشتغل معك، ليش واحد سوري يعرف معلم بهجت إنتي واحد حمير من الأول».

فهم البرغوث ماذا يعنيه بوشكاش، منذ البداية لم يكن من المفترض أن يعرف المعلم بهجت عماد، وأن يبقى عماد يعمل سمساراً صغيراً تحت يد موسى، هذا كان المفترض، ثم يتابع بوشكاش:

- «إنتي واحد حمير، بوشكاش غير مخطئ».

يقول موسى في سره ذلك، ثم يفكر أنَّ حياة الميناء وأحداثه وأشخاصه قد علمته أنْ يكون جازماً بكل شيءٍ يتعلق بمصلحته، وكما كان يقول له دائماً شيخ السماسرة:

«الأشياء التي تريد أن ترهنها عليك أن تبيعها»، ولن يرهن نفسه ومكانه وخبرته كل هذه السنوات بعلاقة السمسار الجديد بالمعلم بهجت، وللبقاء هنا وللعمل والاستفادة عليه أنْ يمحو

المزاحمين من طريقه، وعليه يجب أن لا تطلع الشمس على عماد غداً أو من الأفضل أن ينتظر أسبوعاً قبل أنْ يفعل أي شيءٍ ولن ينتظر القاتل على المقتول لكي يموتَ لوحده.

محترف الجريمة

كان ذلك أشبه بالكابوس...

جاء ليلاً موسى إلى غرفة بوران بعد أن رحل عماد، حيث تشاجرنا معه بعد أن علم صفوان أنَّ عماد قد سرق ألفيرا التي كان يوهمها بأنَّه سيتزوج بها، وأخذ أموالها وحاول قتلها وهرب، حينها اكتشفنا أن التمثيلية التي تمت كنا أنا وصفوان نلعب فيها دور الكومبارس، وكان عماد يعمل مع أبي طارق من تحت الطاولة، ولكي يفرَّ بالأموال من دون شهودٍ طلب من أبي طارق أنْ يقحمنا في رحلةٍ قريبةٍ إلى تركيا، فوجد أبو طارق ضالته في تلك السفينة التي ستتوجه قريباً جداً إلى مرمريس في تركيا، وبناءً عليه حددَّ عماد ساعة الصفر لخطته مع تلك المرأة، ولم يعلمنا بموعد السفر سوى قبل ساعاتٍ من انطلاق السفينة واهماً إيانا أنَّ الرياح هبَّت وعلينا اغتنامها، ولكن ما لم أتوقعه أن يكون عماد على علاقةٍ بموسى البرغوث، حيث جاء إلينا ليلاً في تلك الليلة وأخبرنا أن الرحلة اكتملت وعلينا المغادرة إلى اليونان خلال ساعات الصباح الأولى دون تأخيرٍ، ذلك الذي ما لم نستطعْ رفضه، حيث كنا قد دفعنا مسبقاً للسمسار كما فعلنا سابقاً مع أبي طارق، وما لم نكتشفه في اليابسة اكتشفناه في البحر، فعماد أوهمنا أنه دفع لموسى

أكثر مما كنا نملك أنا وصفوان واعتبر أنَّ هذا المبلغ دينٌ علينا له حتى نصل إلى أوروبا ونعمل فنسدده إياه، حينها تفاجأنا لموقف عماد الذي لم يكن يضحي من أجل أمه، فلماذا يضحي من أجلنا؟ هذا هو السؤال الذي اكتشفنا إجابته بعد أن أخبرتنا المجموعة أن كل شخصٍ دفع للمهرب مبلغ ثماني مئة دولارٍ أمريكي، وليس ألفاً وخمسمئة دولارٍ كما كان يكذب علينا عماد، أي إننا نسافر على حسابنا الآن، لكن نسافر كضيفين ثقيلين على القارب المطاطي الذي كان من المفترض أن يبحرَ بنصف العدد الذي يبحر به الآن ليكون آمناً. بدأ الكابوس عندما جاء موسى وبوشكاش، وبدأ موسى يقنعنا أنّ علينا أنْ نغادر وإلّا سيضيع علينا المبلغ الذي دفعناه، فقال موسى:

- «الأمواج هادئةٌ في مرمريس والمسافة إلى رودس قصيرة، ثلاث أو أربع ساعات فقط وستكونان في رودس، لا تضيعا الوقت إنها الفرصة التي ينتظرها اللاجئون في مرمريس، وعندما ستصلان رودس، ستركبان سفناً تجاريةً كبيرةً وقويةً إلى خليج بيرايوس في أثينا، وعادةً يبقى اللاجئون في مرمريس أشهراً حيث تجري الرياح بما لا تشتهي السفن».

يقاطعه حينها بوشكاش محاولاً إقناعنا بلغةٍ أقرب إلى (الهيروغليفية):

- «زبون كتير بلم موجود، إنتا اتنين سوري، ريح يمين، بلم شمال، مزبوط موسى مزبوط».

كان يحاول أن يترجم إلى الهيروغليفة التي يتحدث بها بيت الشعر العربي للمتنبي..

«ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»

وصل الجميع في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل إلى نقطة التقاءٍ مُتفقٍ عليها سابقاً، وقد أخبرنا عنها موسى. وعندما وصلنا ورأينا العدد الذي يتجاوز سبعة وثلاثين شخصاً ظننا أننا سنخرج في مجموعتين في قاربين مطاطين منفصلين، ولكن فوجئنا أننا جميعاً سنركب القارب المطاطي ذاته، كان اللاجئون المسافرون صامتين لا يتكلمون وعابسين كأنهم يُساقون إلى حتفهم، قام موسى بدفعنا إلى داخل القارب المطاطي كي نخرج كأول مسافرين على القارب، أمَّا أنا فكنت متردداً جداً، ركب صفوان القارب أولاً وتبعتهُ حيث كان القدر يحركنا ولا نتحرك من تلقاء أنفسنا، وكان موسى جزءاً سيئاً من قدرنا، وكأننا في كابوس مسلوبو الإرادة، وأخذ المسافرون يصعدون على متن القارب، أما أنا فتوترت كثيراً وشعرتُ أني أقدم نفسي كوجبةٍ للموت، أخذنا نتراص بجانب بعضنا البعض لكي يستطيع الباقون الصعود، أكاد بين لحظةٍ وأخرى أن أنزل من القارب، فقلبي يخفق بشدة وأعصابي مشدودةٌ، أقول لصفوان وأعبّر له عما يعتريني وعن صدمتي بما يحدث بصوتٍ هامسٍ:

- «أشعرُ كمن يتوجه إلى حبل المشنقة، وليس هناك سوى دقائق حتى يتمَّ دفع الكرسي من تحت جسدي الواقف على منصة

المشنقة، شعرتُ ما إنْ يدفع المهربون القارب نحو عمق البحر سنموت».

لكن صفوان حاول أن يبقى هادئاً بجانبي وقال لي:

- «بينك وبين الحياة ساعتين يا رجل، هل جننت؟؟ لا تخشَ شيئاً فمن مثلنا يموتون بسنٍ متأخرةٍ ليذوقوا كل أنواع العذاب».

حاولت أن أوهمه أنني على ما يرام، وابتسمتُ في وجهه كي يشعر أنني بخير، فمن أسوأ الأشياء التي تحدث لك أن تعلمَ ساعة موتك، وأنت بين أشخاصٍ يعتقدون أنهم سيبقون أحياءً، وكأنني أرى ما سيحدث أمامي، فلعنة الحدس تلاحقني أينما حللتُ وأينما أذهبُ، ولكنّي قررْتُ ألّا أثيرِ الرعب في القارب فالجميع خائفون ويكابرون على خوفهم مثلي، وعلى أي حالٍ أبحر القارب ولم نعد نرى شيئاً.

كان في المقدمة شابٌ يحمل ضوءاً ليزرياً، يطفئه حيناً ويشغِّله أحياناً، يشغِّلهُ كل خمس دقائق لبضع ثوانٍ، خشية أنْ يلاحقنا خفر السواحل، كما يدعون، مع العلم أنَّ خفر السواحل لا يهتم كثيراً بالمسافرين ولا يلاحقهم، ولكن كانت هذه توصيات المهربين لكي يثبتوا مصداقية أنَّ العملية كاملةً عمليةٌ خطيرةٌ، وأنهم استطاعوا تمريرنا من بين أنياب خفر السواحل، ويتوجب الحذر، حينها لم يكن البحر هادئاً أبداً كما أخبرنا موسى، وكان الجميع يحمل أجهزةً خلويةً يتتبع الخريطة وجزر بحر إيجه وموقعنا والبوصلة، كان اللاجئون يديرون القارب بطريقةٍ بدائيةٍ عبر أجهزة الهاتف

وجهاز تحديد الموقع، يحددون الإحداثيات من خلال خرائط غوغل ويسيرون باتجاه الجنوب بالسرعة التي يسمح بها القارب، ومن المفترض أن نكون خلال أقل من ثلاث ساعات في جزيرة رودس اليونانية القديمة ومنها نستقل سفناً تجاريةً أوروبية إلى أثينا، كما أخبرنا المهربون، وكان الطريق آمناً على حد زعم المهربين الكاذبين، قلت لصفوان إنَّ البحر لا يفهم صداقة الأشخاص، البحر ديكتاتورٌ، فإذا حدث أي شيءٍ فحاول النجاة بنفسك، إياك أن تنظر لأحدٍ حولك، قلبي كان ينبض بسرعة وكنت ألتقط ترددات الموت بكل لحظة، وكان القارب مهيأً أن ينقلب بين لحظةٍ وأخرى، وكنتُ أنظرُ بين الحين والآخر إلى الوجوه الشاحبة والخائفة من الموت، فإننا الآن عبيد الموت فعلاً.

كما تقول أنطوانيت

كن رجلاً لمرةٍ واحدة...

دفعْتُ فاتورة جُبنكَ وخوفكَ منها طيلة السنوات السابقة، كنْ رجلاً لمرةٍ واحدةٍ، وخُذْ القرار مرةً واحدةً، فبعد كلِّ هذه السنين من التأزُّم والخساراتِ ماذا تنتظرُ أنْ تربحَ!!؟؟ لقد أعطيتَ كلَّ ما لديك ولم تجنِ شيئاً، فمنْ ماذا أنتَ خائفٌ؟؟ فالإنسان يخاف من الخسارةِ وأنتَ خسرتَ كل شيءٍ، فمنْ ماذا ستخافُ بعد الآن!!؟ وكما يقولُ المصريون: «ضربوا الأعور على عينه، قلُّهم ماهي خربانة خربانة».

كانت ألفيرا تحاول تغييرَ قواعد الاشتباك التي سادت علاقة جورجي بكلودين ما يزيدُ عن عشرين عاماً، فبعد كلِّ ما فعله عماد معها أصبحتْ على قناعةٍ مطلقةٍ أنَّ عليها أن تُجرِّدَ من تريد أنْ تكون معهُ من كلِّ ما يملك، لتكونَ هي الشيء الوحيد الذي يملكُهُ، وعندها تسحبُ الخيارات من بين يديه لتكونَ خياره الوحيد، فلقد انتهى زمن القلب الطيِّبِ عند ألفيرا، وكما قالت لها أنطوانيت:

- «دعي هذه الخسارة تكون مكسباً وفكِّري أنَّ المصاعب

تقـوّي ولا تُضعِـفُ، فالأغصـانُ لا تشـتدُّ وتصبـح قويـةً إلّا بعـد أن تتـمارسَ مـع الريـاحِ الهوجـاء، والطفـلُ لـولا الصعـاب التـي يعانيهـا كان سـيبقى طفـلاً لينـاً وضعيفـاً ومحتاجـاً إلى أهلـه دومـاً».

ومـع أنَّ ألفـيرا لم تكـنْ تحـترمُ كلامَ أنطوانيـت عمومـاً، إلا أنهـا في مرحلـةٍ، بحاجـةٍ بهـا لترميـم وبنـاء علاقاتهـا وإعـادة هيكلتهـا مـن جديـدٍ ولكـن عـلى قواعـد جديـدةٍ، فقـد تكـون المشـاكل التـي نواجههـا في حياتنـا توسـم حياتنـا بالتعـب، وقـد نشـعرُ بـألمٍ كبيرٍ عندمـا نتعـرض لأزمـةٍ مـا، ولكـن بالنسـبة لألفـيرا قـررَتْ أنْ تأخـذَ مـن ألمِ التجربـة ومرارتهـا، القـوةَ والمناعـةَ اللتـين يجعلانهـا أكثـر صلابـةً في مواجهـة قلبهـا وهـزَّات أنوثتهـا الارتداديَّـة وأكثـرَ حكمـةً في التعامـل مـع الأشـخاص، وأكثـر حـذراً وصرامـةً، وفكـرت مليـاً بـكلام أنطوانيـت حيـث كانـت تقـول:

- «لـن تنتهـي الحيـاة إذا تعـرَّض أحدنـا للسرقـة أو الغـدر، الـربُّ دومـاً يرحمنـا، ويقـف لجانبنـا لكـي لا نسـيرَ نحـو الهـلاك الكبـير ولا نحـترق كليَّـاً».

هكـذا كانـت تقـول أنطوانيـت نقـلاً عـن الأبونـا (ونحـن لا نفهـم أكثـر مـن الأبونـا)، فالمتدينـون يـرون الأشـياء بطريقـةٍ أكثـرَ مصداقيـةً لأنهـم يبحثـون عـن الحقيقـة، أمَّـا المشـككون والكافـرون والملحـدون فـلا يـرون الأشـياء أبـداً، هـذا مـا كانـت تقـول أنطوانيـت نقـلاً عـن الأبونـا (ونحـن لا نفهـم أكثـر مـن الأبونـا)، فالحيـاة مخـاضٌ عسـيرٌ

للحكمة، والحكمة هو قمَّة الأبديَّة، وهذا أيضاً كانت تقوله نقلاً عن الأبونا (الذي يفهم أكثر من أي إنسانٍ في هذا العالم).

كانت تحاول ألفيرا أنْ تدفع أنطوانيت بالاتجاه الذي اختارته هي ـ أصلاً ـ لنفسها بعد أنْ هرب صفوان من بين يديها، لقد أغلق صفوان في وجهها كلّ أبواب الفرح، وأغلق جوني آخر متنفسٍ لها بعد أنْ أكتشفتْ أنه نسخة أخرى من عماد، فلم تجدْ أمامها إلّا باب الخيبة لتفتحهُ وتوهمَ نفسها أنه فرحٌ أيضاً. فالتزمَتْ طيلة الفترة الماضية بالكنيسة (وبالأبونا) وبالصلوات وبقراءة الإنجيل، وكانت تقضي أوقاتاً طويلةً أمام القنوات التلفزيونيّة التي كانت تمقُتُها في الماضي أيامَ كانت تتابعها ألفيرا، (ألفيرا التي قبل عماد).

كانت تحاول ألفيرا أيضاً أن تذهب بعلاقتها بجورجي لحدودٍ غير مسبوقةٍ وألّا تتركَ لهُ أيَّ مجالٍ ليقول لها حان الوقت لكي نفترق، فلقد رأتْ أنَّ عليه أنْ يكسرَ كلَّ ما قد يربطهُ بعائلتهِ التي تعتبرُهُ أباً مع وقف التنفيذِ ويعتبرها عائلةً مع وقفِ التنفيذ، ستحقنهُ ألفيرا بكثيرٍ من المصطلحات الرجوليَّة وتدفعهُ أنْ يُظهرَ لكلودين ما أخفاهُ طيلة ربعِ قرنٍ، فهي تدغدغُ البركان الخامد في أحشائهِ وتقول لهُ:

- «إنها تحتقركَ، تظنُّكَ تخافُ من إخوتها يا جورجي، لكنها في الحقيقة عندما ستسمَعُكَ تصرخُ في وجهها وتهددُها بالهجرِ سترضخُ لكَ ولن تكسرَكَ وتكسرَ كرامتك أمام أولادك، أنا أنثى يا جورجي وأعرفُ تماماً كيف تشعر الأنثى بالرعب عندما يصرخ

بوجهها أحدٌ، وستحاول أن تسايره حتى لو على حساب كرامتها، لذلك اِصرخْ في وجهها يا جورجي، كن رجلاً يا جورجي».

كان يصغي جورجي لكلام ألفيرا ويشعرُ أنَّ ضغط دمهِ يرتفعُ ويرتفع، ويشعرُ أنه قادرٌ أنْ يصرخ صرخةً واحدةً ويقتل كلودين بصوته بعد الآن.

الفصل السابع

بسمة برلين المفخخة

لا ترفعي صوتك في وجهي

بعد أكثر من عشرين عاماً من الصمت، قرَّرَ جورجي أنْ يتكلَّمَ ويكسرَ كلَّ الحواجز والخطوط والحدودِ التي قَبلَها من خلال قواعدِ فصلِ الاشتباك التي رسمَتْها كلودين على مدى كلِّ هذه الأعوام، فقد حكمَتْ عليه كلودين أنْ يعطي كل شيءٍ ويذهبْ، وكما أنَّ هناك ما سُمِيَ ببرنامج النفط مقابلَ الغذاء أيام حصار العراق، وضعَتْ كلودين لجورجي برنامج المالِ مقابلَ الصمتِ.

ومع تضخُّمِ شعوره بالضيق والحرمان والاضطهاد يوماً بعد يومٍ، بدأَ جورجي يبحثُ عن طريقةٍ ليفتح ثغرةً في جدارِ الاتفاقِ غيرِ المنصوص، لكنَّ هذا القرار تزامَنَ مع مشكلتِهِ الصحيَّة الطارئةِ التي كانت تتطلَّبُ لعلاجها وضعاً نفسياً صحيَّاً غيرَ متوتِّرٍ وراحةً على المستوى الجسدي والنفسي، فأجبرتْهُ هذه الشروط أنْ يلازمَ البيت ويقومَ بحميةٍ صحيةٍ وألّا يُجهدَ جسدَهُ في أيّ عملٍ، ومنذ بداية زواجه بكلودين لم يمكثْ جورجي كلّ هذا الوقت في المنزل بوجه كلودين.

شعرَ بعد كل هذه السنوات أنّهُ يتعرفُ على كلودين من

جديدٍ، ويرى أشياء كان يراها لأولِ مرة بكلودين ويرى أنَّ هناك أشياءَ كثيرةً أيضاً انتهت في كلودين، واقتنعَ حينها أنَّه على الإنسان أنْ يعيد صياغة علاقتهِ بأقربِ الناس إليه، وأنْ يضعَ المقرَّبينَ دوماً على منصةِ التجربة ومخبرِ المواقف، انتابَهُ لبعض الوقت إحساسٌ بالندم، وتكلَّلَ ذلك بعد أنْ سيطرَت عليه لعنة (لو)، فكان يقول:

- «**لو** كنْتُ غير ما أنا عليه الآن، لكنْتُ استطعْتُ أنْ أروِّضها وأتفاهمَ معها، **ولو** كنْتُ قاسياً منذ بداية زواجنا لكانت ستليْنُ هي، أو ربما كانت ستهجرني وأتخلصُ منها للأبد، **ولو** استطعْتُ تنفيذ أشياء كثيرةٍ كانت مطلوبةً مني لكانت تنظرُ إليَّ الآن نظرةً أخرى باحترامٍ... ».

وبعد فترةٍ من زواجه سيطرَتْ عليه لعنةُ (لكن) حيث احتلَّ **(لكن)** مكان **(لو)** فكان يقول:

- «**لكنَّها** منذ البداية وقبل الزواج كانت كما هي الآن في هذه اللحظة، فهي تحتاج لتغييرٍ جذريٍ في شخصيتها يقومُ به حلف شمالِ الأطلسيّ وليس جورجي، يقوم به حلف شمال الأطلسي كما يفعل مع الأنظمة التي تشكِّلُ خطراً على المصالح الغربيَّة في المنطقة، ولا تحتاجُ لشخصٍ مثل جورجي يخجلُ ويخافُ على عائلته، **ولكنها** لم تعطِ الفرصةَ، **ولكنها** لا تريد، **ولكنها** مصمِّمةٌ...».

في نهاية المطاف قرَّر أنْ يتكلَّم وأنْ يكسرَ كل الحواجز، ويطلقَ النار بشكل مركزٍ في أسفل ومنتصف الهدف، ولن يكونَ عبثيّاً، سيصوِّب ويسدِّد ويطلِق ويكسر كل حدود الخوف، فلم يعدْ

هناك ما يخيف بعد الآن، فحين عاد بالأمس إلى المنزل، كانت ميلًا تستعدُّ لتذهب مع صديقتها، وتلاقت بوالدها عند بوابة المبنى فسألها:

- «إلى أين تذهبين يا ميلا في منتصف الليل؟».

- «لقد أخذت الإذن من أمي».

يدرك جورجي تماماً أنَّ يدَ كلودين هي اليد الطولى في المنزل، وقراراتُ كلودين لا يستطيع إلغائها لا جورجي، ولا مجلس الأمن، ولا من جاء بجورجي إلى الحياة، وشعر جورجي أنَّ هذا الموقف هو الفرصة المناسبة للانقضاض، وأنَّه يشكِّل ساعة الصفر خصوصاً أنه يستندُ إلى منطقٍ سليمٍ حيث إنَّه يملكُ الحقَّ كأبٍ أنْ يمنعُ ابنته من الخروج ليلاً مع فتاةٍ غريبةٍ، ولأوّل مرةٍ في التاريخ الحديث يفتح جورجي الباب ويغلقه وراءَه بقوةٍ محدِثاً ضجَّةً كبيرةً في المنزل الهادئ، جعلت كلودين تشعر بالرعب وتظنُّ أنَّ هناك من اقتحم المنزل.

حيث ركضت كلودين إلى الباب لتستطلع الأمرَ فينظر جورجي لأولِ مرةٍ في التاريخ في وجه كلودين وهو متجهمٌ، وكانت هي لا تزال تحاول فهم ما يجري، وقد أخذها الخوف والرعب، وبدأَ جورجي يحدِّق بها، وقبل أنَ يتكلمَ أيَّ كلمةٍ، شعرَ جورجي أنْ العرق بدأَ يتصبَّبَ من مؤخِرَتِه وبرعشةٍ في جسده واضطرابٍ في كامل أنحاء أضلاعه، وأنَّه ابتلعَ لسانهُ وأنَّه غيرُ قادرٍ على الكلام. ثمَّ بدأ يرجف، سادت لحظاتٌ من الصمت بينهما قبلَ أنْ تبدأَ

علامات الغضب تتضحُ على وجه كلودين أكثر فأكثر، حيث كانت تبدو كأنها خارجةٌ من معركة فلقد كانت نائمةً.

شعرَ جورجي أنّه تورَّط بهذا النزال، وأنَّه يمارس هوايةً خَطِرَةً، وليس جاهزاً للدخول في هذه المعركة الآن، في معركةٍ خصمُهُ فيها مستَفَزٌ دائماً ودائماً جاهزٌ للعرَاك، وشعرَ أنَّ المعطيات والتوازنات تميلُ لصالح العدو وليس أمامه أيُّ هدفٍ معادٍ مكشوفٍ فحاول جورجي البدء كي لا تصرخ هي قبله، وقبل أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ كان صوتها يمزِّقُ جدارَ السماء وكانت تصرخ قائلةً:

- «هلْ تظنُ نفسك تدخل إلى زريبةٍ، ألا تعرفُ أنَّ الناسَ نيامٌ؟؟ يا جورجي هذا منزلٌ، هذا ليس حظيرةً، عليك أنْ تفهمَ أنَّ هذا منزلٌ، منزلٌ، مـــــنـــــزلٌ».

حينها أخذَ جورجي يستجمِعُ قواه، ويأخذُ نَفَساً عميقاً كما نصحَهُ الطبيب، وأخذَ يحاول أنْ يبعثرَ صوت كلودين الذي احتلّ رأسهُ، وأنْ يتخلص من الاضطراب الذي أدَّى إلى اهتزاز أطرافه وارتعاش جسده، وأخذ يبحث عن لسانه ويهمُّ بالكلام وما إنْ يخرج أول صوتٍ من فمه حتى تعاود كلودين الصراخ:

- «عليكَ أنْ تفهمَ جيداً أنَّ هناك كائناتٍ حيَّةٍ تعيش هنا في هذا المنزل، في هذه الزريبة، هذا ليس دائرةً حكوميةً ولا مبغى، ربما تعوَّدتَ أنْ تدخلَ إلى بيتِ أمكَ بهذه الطريقة الهمجيَّة».

- «كلودين دعيني أتكلم ...».

- «ماذا ستقول تكلَّمْ؟؟ تدخُل في منتصف الليل إلى البيت وكأنَّه حانةٌ وتضرب الباب وراءكَ وكأنَّنا أمواتٌ، ألا تخافُ علينا!!؟؟ ألا تضعُ أدنى اعتبارٍ لمشاعرنا في هذا البيت؟؟ أم تظنُ نفسك تدخلُ إلى بيتِ إحدى عاهراتك ؟؟؟».

- «أرجوكِ دعيني أشرح لكِ، لقد رأيت...».

- «لا يهمني ماذا رأيتَ، يهمُّني أنَّني طيلة النهار أعملُ مثل الحمارة كي أصلحَ السيارة لكي تذهبَ ميلا بها إلى المطار من أجل أنْ تستقبلَ خالها العائد من السفر كي لا نضطرَّ أن نرسلها مع أحدٍ أو أن أطلبَ لها تاكسي، لولا أنْ جاءت صديقتها وعرضتْ عليها أنْ توصلها، لا يهمُّني ماذا رأيْتَ، ألا ترى أنَّ كلَّ الناس تسير للأمامِ وتبني وتشتري لأولادها السيارات إلا أنتَ، لقد كبرَ الأولاد وازدادَتْ طلباتهم، وأنتَ لاتزال بدخلٍ ثابتٍ وحياةٍ ثابتةٍ ومقدراتٍ ثابتةٍ وكأنَّك آلةٌ، ألا يوجد هناك ترقياتٌ في فندقكم؟؟؟».

حينها بدأ العرق يتصبَّبُ من وجه جورجي، ومن كل أنحاء جسمه وشعر جورجي بالذنب وأنَّه قد تورط فعلاً، وتذكَّر حينها موقعة المنشفة، حين اكتشفت كلودين ــ قبل سنين طويلة ــ أنَّه جاء بامرأةٍ إلى البيت من خلال رائحة المنشفة، وعاد لسانه ليضيع من جديدٍ بين أسنانه في فمه، وصوته غار أيضاً واحتار كيف يجعلها تصمت لكي يتحدثَ، فما إنْ يتكلَّم حتّى تقاطعهُ وتهيلُ عليه سيلاً من الشتائم والإهانات.

حاول جورجي أنْ ينسحب تكتيكيّاً لكن كلودين أخذتْ تلاحقُهُ من غرفةٍ إلى أخرى، وفي نهاية الأمر فكر أنَّه لا بد لها أن تتعب من الكلام، ولم يجد نفسه إلّا أمام الحمام حيث دخل الحمام وأبقى الباب مفتوحاً في خطوةٍ يدرك أنها تثيرُ اشمئزاز كلودين، لكنها وفي سابقةٍ في تاريخ العلاقات الأسريَّة، وقفتْ أمامَه وأكملَت إهانتها له، بينما كان يحاول الرد أثناء محاولة التغوط حيث كان يقول:

- «كلودين دعيني أقول لك ...».

- «ماذا تريد أنْ تقول، أعرف سلفاً كل شيءٍ ستقوله، ستقولُ ليس بيديّ ولا قدرةَ لي وهذه إمكانياتي ووضع البلدِ سيئ، أريد أنْ أفهمَ إذا كان لا قدرةَ لك أن تحسِّن حياتنا، لماذا أنجبت أولاداً؟؟ لماذا تزوجت؟؟ إذا كانت هذه إمكانياتك فلماذا لا تستغلها في مكانٍ آخر، لماذا لا تسافر، لماذا لا تذهب، لماذا لا ترحل؟؟ أريد أن أفهم، هل ظروف البلد سيئةٌ عليك أنتَ فقط؟؟ وهل الناس الذين يعملون وينجحون وتزيد أموالهم يعيشون في المريخ أم إنهم في هذا البلد أيضاً؟؟».

عندها يحاول أنْ يجيب لكنها كانت تقاطعه وتزيد من صراخها، وفي هذه الأثناء لم يعدْ هدف جورجي أنْ تصمت كلودين بقدرِ ما كان هدفهُ أنْ يستطيع التغوط بعد أنْ صار له ثلاثة أيام لا يستطيع ذلك، ثم شيئاً فشيئاً بدأ لا يعير اهتماماً إلّا لحركة أمعائه، ومع أنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ خمسٍ وعشرين

عاماً لكنه فشل في أنْ يُحدثَ ثقباً في جدار كلودين، ولذلك قال في نفسه إنَّه سيعاود المحاولة من جديدٍ فالحياة قادمةٌ وباستطاعته أنْ يصرخ عليها يوماً ما، وسيأتي اليوم ويستطيع أن يصرخ بوجهها ويقول لها (اصمتي)، ولكن المهم أنْ يستطيع أن يتغوَّط.

فجأةً!! استطاع ذلك...

عندها نظر جورجي إلى باب الحمام، وكانت كلودين قد ذهبت إلى غرفتها، فقال بكلامٍ هامسٍ بالكاد خرج من شفتيهِ: «كلودين لا ترفعي صوتك في وجهي».

صربيا

إنها صربيا، ومهما حاولتَ ألّا تبدو عربياً في صربيا، ستفشل في ذلك!!

رائحة الدم والضحايا والحروب تملأ الأماكن فتذكِرُني ببلادي العزيزة، أيُّ لعنةٍ هذا أنْ تتذكر بلدك عندما ترى الموت فقط!! ويصبح بلدك مثالاً ونموذجاً للبلد الذي انهار في الحرب، وكأنَّ بلدي علّمت دول العالم طريقة الانتحار.

يركب إلى جانبي في (الميترو) لاجئٌ عراقيٌّ من تكريت يدعى «طارق عبد المحسن»، ويبدو أنَّه تعرض لمصيبةٍ مثلي، ولكني لا أعرف من فقد!! ولا أعرف من قد غرق من أقاربه أو أصدقائه أو أبنائه أمام عينيه!! لأنه كان مثلي يفكر بصامتٍ ويحرك رأسه، وكأنَّ الأفكارَ تصل إلى فمه فيقبضَ عليها بلسانه ويقول لها عودي أيتها اللعينة إلى رأسي، أتذكَّرُ أني لمحْتُه في مكانٍ ما من العالم، أو تراني أتوهَّمُ!؟ فربما تلك الوجوه التي تتعرضُ بلدانُها للمحنِ تصبح شاحبةً وتشبه بعضها البعض. وربما قد رأيته فعلاً فهو يقول إنه كان في لبنان قبل القدوم إلى تركيا، لكنَه لم يأتِ مرمريس، فهو يدَّعي أن مرمريس هي مدينة سياحيَّة وقلما يأتي اللاجئون إليها، حينها

كنتُ أودُّ أن أقول له إنني سائحٌ وأمزح معه ولكنني تذكرت أنني يجب أن أبكي أمام جروح الآخرين لا أنْ أتهكم، خصوصاً بعد أنْ بدأ يحدثني عن رحلته وتفاصيلها، فتذكرت تلك اللحظات التي بدأتْ رحلتنا فيها حين ركبنا القارب المطاطي وبدأ المسؤول عن الرحلة يقول بطريقةٍ عسكريةٍ للاجئين وتوحي كأنَّنا في حربٍ، وبنبرةٍ عاليةٍ وحازمةٍ وصارمةٍ:

«هيا ليصعد الجميع إلى المركب بدون أي صوتٍ، لا أريد أنْ أسمعَ أيَّ صوت، عليكم ألّا تصدروا أيَّ صوت، أتفهمون؟؟ إياكم أن يشعل أيُّ واحدٍ منكم سيجارةً، وليرتدي الجميع سترَةَ النجاة، والذين يحملون أغراضاً إضافيَّة فليرموها في البحر، لا تتركوا معكم شيئاً».

وأتذكَّرُ تمتمات نديم وأتذكر بكاء المهاجرين بصوتٍ منخفضٍ وتلاوة القرآن بصوتٍ منخفضٍ من قبل إحدى الراكبات معنا، أتذكر الوجوه والدموع، والأم التي تحضن ولديها وتبتسم بوجههما ودموعها تفضح ما تخافه وتقول لأبنائها «غداً وفي مثل هذه الساعة ستكونون مع أبيكم»، ربما لو كان بيننا رسامٌ على ذلك القارب المطاطي، ونجا، كان سيرسم لوحةً فنيةً وقد يبعيها بمئات آلاف الدولارات وبالتأكيد سيسميها بعنوان الرواية التي أخبرني عنها نديم ذات يوم «البث التجريبي لجهنم»، تلك الرواية التي كان يظن كاتبها أنه باستطاعة الإنسان أنْ يواجه الموت بأيدٍ عاريةٍ وحالة حبٍّ، كما أخبرني نديم، ربما لو غرق صاحب تلك الرواية أو تعرض لرصاصةٍ في رأسه ستتغيرُ قناعته. كانت تلك اللحظة

أول خطوةً لنا في أرض جهنم، فلقد رأينا الموت بعيوننا والموت كائنٌ عصيٌّ على الهزيمة، يخبرك أنه قادمٌ ويقول لك «انتظرني ولا تذهب» ولأنك لستَ أكثر من زوادةٍ موضوعةٍ على مائدته تنتظرهُ كالأبله.

كلنا يدرك بينه وبين نفسه تلك الساعة التي سيموت فيها لكنه يحاول إيهام نفسه بأنه لا يعرف، ومنا من يعرف أنه ميتٌ لكنه يحاول أن يقول إن الموت أسهل مما تظنون، ويخطر في بالي لو شاءت الأقدار ليكتب أبو طارق رواية عنا ماذا سيضع لها عنواناً؟ أكان سيسميها الأغبياء الثلاثة؟ أو الداهية والغبيان؟؟ أو المتمسكون بقشَّة؟ أو الماضون إلى جنتهم؟ أو سيسميها (ولك حبيبي عين عمك)؟ ولو قُدِّرَ لأم حنا أن تكتب رواية ماذا ستسميها؟ أو لأنطوانيت مثلاً، أعتقد أنَّ أنطوانيت ستسمي روايتها «النذل» أو «الخائن» أو «الكلب» أو صفوان التافه أو ربما ستشتم أمي في ذلك العنوان وكأنها تعرف أمي!! ولو قُدِّر لألفيرا أنْ تكتب روايتها كانت ستسميها بالتأكيد «السارق والحمارة» أو «الحمارة والسارق» أو ستسميها «جورجي في اليد ولا عماد على الشجرة» وأتوقع أنْ تكون ماتَتْ من القهر بعد كل ما حصل معها.

لغم بحري

الموت هو من كان يكتب السيناريو منذ خروجنا من لبنان، كنا وجبةً دسمةً للبحر، ومن المفارقات المضحكة في حياتنا أن يصبح الموت واحداً من خيارين لا ثالث لهما، الموت أو العودة إلى الوطن، وذلك حينما كانت الآفاق مسدودةً بوجهك من جميع الجهات، ومنذ اللحظة الأولى التي تحرك بها القارب المطاطي نحو (رودس)، بدأتُ أُحصي آخر اللحظات في حياتي، وبدأتُ أتذكَّرُ كل شيءٍ مرَّ في حياتي وكأنني أشاهدُ فيلماً سينمائياً.

البحر ليس هادئاً كما قال موسى، لكننا الآن في وسطه، وسط المعركة التي نتقابل فيها مع الموت رجلاً لرجلٍ، الأمواج تُعلي القاربَ عندما تصطدم بهِ فيصرخ البعضُ والبعضُ يبقى هادئاً، يُرتل آيةً ما، يظنونَ أنَّ البحرَ يلين قلبه عندما يسمع الآيات، مساكين هم البشر!!

صورة أمي لا تفارق عينيّ، أتذكَّر كيف كنتُ أرمي نفسي في أحضانها، فقد كان حضنُ أمي هو الوطن الوحيد والنهائي في كل لحظات حياتي منذ طفولتي حتى هذه اللحظة النهائيّة من العمر، ولو كانت أمي حيَّةً لكانت وحدها تستطيع أنْ تُوقفَ البحر عن

هـذه الحماقـة التـي يرتكبُهـا بحقِّنـا، وأتذكَّـر يـديّ أبي السـمراوتين اللتـين تظهـرُ عروقهـما كـما تظهـرُ الأنهـارُ عـلى خرائـط غوغـل، كخطـوطٍ متشـعبةٍ وكثيفـةٍ. فقـد كانـت يـدا أبي ترجمـةً فعليـةً لحياتـه، لتعبـه، لشـقائه في هـذه البـلاد، في بـلادٍ تـترك أيـدي اللصـوص طليقـةً وتقطـع أيـدي الحالمين، لكنـه ليـس هـذا هـو وقـتُ المحاكـماتِ الآن، فالحسـابُ انتهـى، وموجـةٌ أخـرى سـتقلبُ القـارب المطاطـي، ينتـشرُ الذعـر بـين المسـافرين، وصفـوان يضـع يـده عـلى ركبتـي ويقـول:

- «لا تخف أنا معك ...».

ثم يحاول تهدئة الناس فيبدأ بالصراخ قائلاً:

- «لا تخافـوا فقـط حافظـوا عـلى التـوازن، لا تتحركـوا مـن أماكنكـم».

يظـن نفسـه صفـوان عـلى التايتنـك، فنحـن بالـكاد نجلـس بالقـارب الـذي لا يتسـع لنملـةٍ معنـا، فأيـن سـيتحرك اللاجئـون وعـن أي تـوازنٍ يتحـدث؟؟ وعندمـا تصـدم الموجـة القـارب يرتفـعُ، فنرتفـعُ معـه، ثـمَّ نهبـطُ، فنفـرح لأننـا لا نـزالُ أحيـاء دقيقـةً أخـرى، لكننـا لم نعـدْ نسـمعُ بعضنـا البعـض، هنـاك مـن يتكلَّـمُ ويعطـي إرشـادات للسـلامةِ في حـال وقـوع القـارب فيـصرخ:

-«السـباحة في اتجـاه مسـيرِ القـارب نفسـه، السـباحة في اتجـاه مسـير القـارب نفسـه...»

مـع المهاجريـن عـلى القـارب أكثـر مـن مصبـاحٍ ليـزريّ، والجميـع

أضاء المصابيح وبدأ بالصراخ لعلَّ أحد السفن القريبة تسمعنا. وفي تلك اللحظة الفاصلة الواصلة بين أكثرِ الأحداثِ خطورةً في حياتك ستجدُ الحقائقَ ماثلةً أمامك بحجمها الطبيعي، الموت يركبُ الموجة المقابلة ويتجهُ بسرعةٍ نحونا، إنها الموجة الأعلى التي نواجهها، فيصرخ صفوان في أُذني:

- «لا ترمِ نفسك في الماء مهما حصل».

قال ذلك بعد أن رمى أكثرُ من شخصٍ أنفسهم في الماء، وكان الجميع يرتدون أطقم السباحة وسترات النجاة ذات اللون البرتقالي الفاقع، والتي تعكس الأضواء المتجهة نحوها، كان يدركُ صفوان أنني لا أجيدُ السباحة كثيراً، وأنا كنت أعرف ذلك أيضاً، لكني لم أكنْ أخشى على نفسي فقط، بل خشيتُ أن يتورط بي صفوان فقد يموت وهو يحاول إنقاذي، في حين لم أعدْ أفرِّق بين الماء والدمع على وجهه، ضربَتِ الموجة القارب بعنف فرمت الكثير في الماء، ومازال الكثير على القارب، وكأنَّ الكرة الأرضيَّة كلها تركبُ هذا القارب، أحاولُ أنْ أتلمَّس صفوان، لكنَّ الماء أعمى عيني والملح أيضاً، وصفوان لم يعد بجانبي فأصرخ:

- «صفواااان، صفواااان، صفواااان».

لقد سقطَ في الماء، ثمَّ يدخل الماء من كل الجهات، القارب يواجه الموجة التالية فيعلو ويعلو بي وأشعرُ أني أستطيع أن ألمسَ السماء، ثم يهبط القارب بسرعةٍ وخفةٍ إلى الماء من جديدٍ ولكني لم أستطعْ التقاطَ أيّ نجمةٍ.

يقذفني الماء، يقلبني رأساً على عقب، يرميني القارب نحو النهايات، كحصانٍ جامحٍ كبا بفارسه، والملح يكوي عينيّ، وحين أحاول أنْ أفتحهما، تبدو الستر البرتقالية لامعةً كالنجوم، أظن أنني في السماء، ولكن من غيرِ الممكن أنْ أحددَ مكاني الآن، وحينها استسلمت، ولم أعد قادراً على مقاومة الموت، أُسلمتُهُ نفسي وقدمْتُ له يديّ فوضعَ الأغلال، وعلَّقَ الخشبة على ظهري، وأمرَني أنْ أمشي إلى جبل النهاية فلقد انتصر الموت عليّ بهذه المباراة النهائيّة، فسلاحُه أقوى من سلاحي، فليس لدي سوى الحلمُ لأعبرَ بينما كان مع الموت السلاحُ الأقوى حيثُ كان معه البحر والحظ.

لقد متُّ من أجل حلمي، كنت أبحثُ عن وطنٍ بعدما استوطن الموت والجيوش الأجنبية بلادي، ظننتُ أنه سيكون في أوروبا، لكن أوروبا لا تقدم أوطاناً بالمجان، بل تقدِّمُ خيمةً لروحك، الوطن هو من لحق بي متخفياً متلثماً وقتلني في بحر إيجه، الوطن الذي ورَّطني بنفسهِ في صغري، أرادني عندما كبرتُ أن أكون قاتلاً أو مقتولاً فهربت لئلا أحترفَ الجريمة فقتلني محترفُ الجريمة. يهبط جسدي نحو أسفل الماء ثم يرتفعُ وكأنَّ البحر يبتلعني ويبصقني في آنٍ معاً، يجرجرني الماء ويقلبني، أسمعُ آخر نبضاتِ قلبي فلقد انتهى كل شيءٍ.

الملائكة نيامٌ وقوات خفر السواحل أيضاً، انتهى كل شيءٍ والبحر يسحبُني إلى أسفله، وأسمعُ بأذنٍ هدير الماء وبأُذنٍ أخرى امرأةً تصرخُ ولا أرى شيئاً، فقط أشعرُ بالدوارِ وبضغطٍ هائلٍ ولم

أعدْ أتنفسُ. أشعر بالاختناق والبحر يسحبني إلى أسفله وقوةٌ ما تسحبني إلى الهواء الطلق، ولا أرى شيئاً، عماءٌ تامٌ وشعورٌ رهيبٌ بالدوار وبالفراغ وأصواتٌ متداخلةٌ وامرأةٌ تصرخ. ثم أرى نفسي وأنا أغرقُ، أغرقُ وأختنق ولكنني لا أشعرُ بالألم، يتمُّ كلُ شيءٍ بسلاسةٍ وأرى جسدي كيف يتدلَّى بخفةٍ إلى أسفل البحر ولم يعد جسدي يصدرُ أيَّ ردِّ فعلٍ.

الماء تداعبُ أطرافي، وجسدي يهمُدُ وأنا أعلو، وأرى جسدي يتمايلُ في الماء المالح وتلاعبه التيارات الدافئة فيتموَّج كأنَّه قطعة قماشٍ، وأنا أبتعدُ. ثمَّ عماءٌ تامٌ ويعود الشعور بالدوارِ وصوت تلك المرأةِ التي تصرخُ وتعود الرؤية، فأرى نفسي مبتعداً عن جسدي وأعلو وأعلو وبالكاد أرى جسدي، أعلو ولم أعد أرى جسدي، أخرج من الماءِ نحو الأفق، أرى نفسي وأنا أعلو وأرى نجومِ البحر التي لم تكن سوى السترات العاكسة للضوء تتمايلُ في البحر في هذه الساعة من الفجر، وأعلو وأرى المشهد من الجوِّ. كلُّ شيءٍ أصبح واضحاً في الأسفل، ثم عماءٌ تامٌ وإحساسٌ رهيبٌ بالدوار وأصواتٌ متداخلةٌ وصوت امرأةٍ تصرخ، وأشعر أنَّني أتنفسُ هواءً نقياً وأنظر لنفسي ولا أرى نفسي، أذكُرُ أمي، أذكُرُ أبي وإخوتي وطفولتي وأصدقائي ويمر شريط العمر أمامي كأنني أشاهد فيلماً سينمائياً، وكل الأشخاص الذين عرفتهم يظهرون أمام عيني واحداً واحداً بلمحِ البصر، وفجأةً يبهرني ضوءٌ ساطعٌ أبيض، وأفقد إحساسي بأيِّ شيءٍ سوى إحساسي بحاجتي لأصرخ لأمي واستغيثُ بأمِّي لكني أعجزُ عن الصراخ. إحساسٌ رهيبٌ

بالدوارِ وضوءٌ ساطعٌ وأصواتٌ متداخلةٌ لكن لم أعد أسمعُ صوتَ المرأة التي تصرخ وأشعر بأحدهم يمسكني من رجلي فيتدلَّى رأسي إلى الأسفل ورجلي إلى الأعلى ولم أعدْ أعرف شيئاً ولم أعدْ أسمع شيئاً.

كمال ورمضان

انتشر خبر مقتل بوشكاش وموسى كلاوي في جميع أنحاء مرمريس بعد أقل من أسبوع على تلك الحادثة التي وجَّهَ فيها المعلم بهجت الكلام الجارح لكليهما، على خلفية تقصيرهما في العمل وإيجاد المهاجرين، وكان عماد على درايةٍ مطلقةٍ بما يمكن أنْ يحدث له عندما يصبحُ موسى وبوشكاش عدوين لهُ، حيث سيرسلان إليه شخصاً ما وسيقتله وسيرميهِ للأسماك قبالة ميناء مرمريس، وفي اليوم التالي لن تتكلَّف الجريدة إلّا أنْ تضعَ خبراً صغيراً في زاوية الحوادث يفيد بإيجاد جثةٍ لاجئٍ غارقٍ قبالة سواحل مرمريس، لذلك لم يتردَّد حينها عماد بإقناع المعلم بهجت بضرورة التخلُّص منهما وتشغيل أشخاصٍ أكثر كفاءةً وقدرةً على استقطاب اللاجئين لتجميعهم في مجموعات حيث قال لهُ:

- «معلم بهجت، لقد عملْتُ مع البرغوث وبوشكاش طوال الفترة السابقة وكلاهما يضربان بسيفكَ في الميناء ويفتعلان المشاكل يومياً و يقومون بتخويف اللاجئين ولذلك لا يستطيعون أن يأتوا إليكَ بالزبائن، فبوشكاش بالكاد يستطيع أن يتكلَّم العربيَّة، وموسى بالكاد يستطيع أن يتكلَّمَ وبحاجةٍ لمترجمٍ بجانبه، كما

أنهما يعملان بشكلٍ مزدوجٍ كما علمْتُ أيْ لصالح مكاتب أخرى غيرك، ومن وراء ظهرك، فلقد جاء معي شابان سوريان وقام موسى بتسفيرهما مع مهربٍ من اسطنبول يعمل في مرمريس، إنهما يعضان اليد التي تمتد لإطعامهما، عندها يقول لهُ بهجت:

- «هلْ أنتَ واثقٌ من كلامك يا عماد؟؟».

- «معلم بهجت، لقد تعلمْتُ ألّا أرمي حجراً في البئر الذي شربتُ منه، ولا يوجد أيُّ سببٍ يمنعني أن أكون وفياً لكَ، فلحمُ أكتافنا من خيرك. وأنا أريد أن أردَّ جزءاً من جميلك وحسناتك معي، لذلك أقول لك ما أقول، فموسى وبوشكاش لا يضرانك بالعمل فقط، بل يوسِّخان سمعتكَ الناصعة كالثلج في مرمريسْ، فأنتَ تساعدُ اللاجئين للعبور إلى اليونان لكنهما يقولان إنكَ تعمل معهما وإنهما شركاء معك، وعندما تسمعُ الناس ذلك سيظنون أن بهجت أوزاي الكبير شريكُ البرغوث وليس رب عملهم وسيظنون أنَّ المعلم بهجت الكبير من قياس البرغوث وبوشكاش لا سمح الله».

- «طيب ابني عماد ماذا يجبُ أن نفعلَ؟».

- «اترك الأمر لي سيدي، ستكونُ بعيداً عن كل ما سيحصل، فالمفترض أنَّ المشاكل يحلُّها العمال، وأصحاب العمل يبقون مرتاحين، وأنا سأتدبر الأمر، سأبعث لهما بهديةٍ ومن ثم لن تسمعَ عنهما سوى خبرٍ واحدٍ وإلى الأبد».

- «أنت رجلٌ أستطيع الاعتماد عليه، كنْتُ أطمحُ دائماً أنْ يعمل معي رجلٌ مثلك يا بني، افعلْ ما تريد لقد فوضتك».

***

في اليوم التالي اجتمعَ الثلاثة ليلاً على صخور الميناء، وتعهد عماد لهما أنْ يساعدهما كي تعود علاقتهما بالمعلم بهجت كما كانت، حيث لم يشعِرْهُما عماد بأيّ شيءٍ وقال لهما:

- «أنتما أصحابي، ولكما فضلٌ علي، لقد عملنا معاً وعلمتموني أصول هذه المهنة، ووقفتما إلى جانبي دائماً وكما أنتما أنا، لا أنتما تعضان اليد التي تمتدُّ لكما ولا أنا، ولقد أخبرتُ المعلم بهجت بوفائِكُما لهُ وأنكُما تخافان عليه وعلى مصلحته، وهو أخبرني أنكما من الرجال الذين يعتَمِدُ عليهم، وطلب مني أنْ نذهب إليه صباح غدٍ».

تأثَّرَ موسى وبوشكاش بكلمات عماد العاطفيَّة، لكن شكوك موسى لم تتبدَّد نهائياً، وتذكَّرَ حينها كلمات أبي طارق حين قال له:

- «ستكتشف أن هناك شخصاً ما على سطح الكرة الأرضية أوسخ مني، إنه عماد ...».

ثم يقطع الصمت الذي ساد لدقائق كلماتُ بوشكاش الخليطة بين العربيَّة والتركيَّة حيث كان يقول:

- «يوس معلم بهجت أفندم، إنت قبضاي، أنا قبضاي،

موسى كمان، زمان كنا بهجت أفندم بحب شغل أكثر، عمل أكثر، أكثر زبون مصاري أكثر».

كانت أيضاً هذه قناعة موسى بعد الترجمة الفورية لكلام بوشكاش فهو يقول إنَّ المعلم بهجت يعرف أننا رجال، لكنه يحب الذي يأتي له بالزبائن والمال، قبل أن يقول موسى:

« الزبـ... زبـ... زبائن والمال لا يأتون لوحدهم، البر... بر... برغوث يبذل أقصى جهده، والله كر... كر... كريم، اللاجئون يحلبون النملة ويريدون أن يسافروا دون أن يد... يد... يد... يدفعوا، إن العمل مع عاهرات أنـ... أنـ... أنقرة أفضل من العمل مع اللاجئين، على أقل تقـ... تقـ... تقدير تشعر أنَّ ما تحصلُ عليه حلالٌ».

ومن بعيد يظهر شابان طويلا القامة من العتمة، بالكاد يمكن رؤيتهما بينما يبقى الحديث دائراً بينهم، ثم يبدأ بوشكاش الكلام حيث لا يستطيع عماد ولا موسى تفسير ما يقول، لكنه كان يتكلم أيضاً عن تجربته في العمل مع العاهرات، حيث كان الكلام عن العاهرات آخر ما تم الحديث عنه بين الثلاثة قبل أن يتقدم الشابان القادمان عبر الظلام وبيد كل منهما قارورةٌ تشبه قارورة العطر بطول إصبع واحد، فيرشان معاً مادةً مخدرة بوجه موسى وبوشكاش، وبعد أقل من عشرِ ثوانٍ كانا قد أصبحا مطروحين على الأرض، ولأن القتل في مرمريس ليس بحاجةٍ لكثيرٍ من الجهد، قام القاتلان بجرح وريدي موسى وبوشكاش ورميهما

في البحر ليصفي دمهما، وفي الصباح الباكر يدخل عماد مع شابين جديدين إلى المعلم بهجت ويقول:

- «معلم بهجت، أعرفُكَ بكمال ورمضان، لقد بدآ العمل معنا الليلة الماضية، قاما بتسفير زبونين عبر البحر، ونجحا في أولِ امتحانٍ لهما في العمل».

- «إلى أين قاما بتسفير الزبونين ابني عماد؟؟».

- «إلى جهنم الحمراء، معلمي».

فنظر إليهم المعلم بهجت الذي كان يداعب قطته قايماك وقال لهم :

- «طيب تورون طاطلي تشابوك عماد».

فيبتسم عماد ابتسامة ثقة ويقول:

- «تشكر أدريم، تشكر أدريم، بهجت أفندم».

معركة رودس

بدأ الفجر يفكُّ أزرارَ الصباح، يلطِّخُ الضوءُ وجه بحرِ إيجه، وكأنَّه يلقي تحيَّةً صباحيَّةً على الصيادين والسفن، لقد هدأ البحرُ، وجثَّتي تطفو إلى جانب جثَثٍ أخرى متباعدةٍ، والرياح الباردة القادمة من الشمال تلفَحُ الجثثَ المنتشرةَ فوق مياه بحر إيجه، ليس مهمَّاً فالأمواتُ لا يشعرون بكثيرٍ من الألم.

كانت الأمواج كالأوركسترا التي تعزف أناشيد الوداع، وكأنَّها تشيّعُنا وتردِّدُ الصلوات على أجسادنا المنتفخة بالخيبات والماء والملح، وكأنَّ البحر يتوضأ بالغرقى قبل صلاةِ الفجرِ. وقبل أن تبدأ قوات خفر السواحل عملية البحث عن ناجينَ بعد الإخطارِ الذي وصلهم حول غرقِ قاربٍ مطاطيٍّ يحملُ لاجئين متجهين إلى رودس اليونانية.

كثيرةٌ كانت القوارب التي أتت، والتي بدأَتْ تدورُ بحركةٍ دائريةٍ شبهِ منتظمةٍ بمساحةٍ واسعةٍ حول المكان، كان كلُّ قاربٍ يحمل فريقاً للإنقاذ مع كل المعداتِ الطبية وأسطوانات الأوكسجين والمصورين، وقد جاؤوا جميعهم خصيصاً لإنقاذ جثثنا وتصويرها وبيعها كالعادة للجرائد وأغلفة المجلات في أوروبا، فشكراً

للمجازر التي حولت أبناء شعبنا المغمور إلى مشاهير ونجوم على أغلفة المجلات وصفحات الجرائد.

للأسف كنتُ أحبُّ أنْ أصلَ حيّاً إلى اليونان، وكنتُ أحبُّ أنْ أرى معالمها وأشتَمَّ هواءها النظيف، وقد كنْتُ من أشدِّ المعجبين بهذا البلد الرائع وبفلاسفته العظماء، لكنني لم أصلْ حيّاً إلى شوارع اليونان فغرقْتُ في بحر حكمتها مرتين، الأولى عندما كنْتُ أقرأُ محاكمة سقراط، والثانية عندما حاكمني بحر إيجه وأعدمني ميدانياً، وحدهم فلاسفة اليونان يعلمون قيمة الأرض التي أتيتُ منها ويدركون أن لجوئي تهمةٌ وأننا منذ بدء الكون كان وطننا هو العالم، لكنَّ أحلامنا تورطنا بالأجنحة، والأجنحة قد لا تؤدي بك دوماً إلى السماء، فهي تحكم جنسك بالأقفاص أيضاً، وبين أنْ تكون نسراً في السماء أو نعامةً تدفن رأسها في تراب الواقع أو أنْ تكون دجاجةً، بين هذه الخيارات تكون معركتك، أما الجغرافيا التي تدعي أنَّها وطنك لمجرِّد أنَّ حبل سرَّتِكَ قُطِعَ فيها، ومقابل حبلِ سرَّتِكَ تدفعُ حياتك ثمناً، ويصبح الفارق مع الوقت صغيراً جداً، بين حبلِ سرَّتِكَ وحبلِ مشنقتكَ.

ليس للإنسانِ وطنٌ فالوطن كائِنٌ خياليٌّ لا تستطيع أنْ تعيشَ دون أن تتنفسَ من خلاله، والأرض التي حُكِمْتَ بها ليست وطناً، الوطن هو الكائن الذي يُسخِّر كل قواه ليحميك، وعندها يتكامل وجودكما، فالحبُّ وطن، والأنثى وطن، والأمُّ وطن، والشجرة وطن، والصديقُ وطن، أمَّا الجغرافيا التي يشحذون منه قطعة

قماشٍ ملوَّنٍ لتغطي جثَّتَكَ فهذا ليسَ وطناً، وقد تغطي نعشك بقماشةٍ من الصوف حاكتها لك أمُّك وهي تبكي فراقك.

تصلُ طواقمُ الإسعاف ويمسكون بجثتي ويسحبونها من الماء، يجسُّون نبضي ويفتحون عينيَّ بأصابعهم ولكن انتهى كل شيءٍ منذ ساعاتٍ طويلة، أنا الآن لسْتُ سوى رقمٍ في دفاترِ الذين ينتشلونَ جثتي وصورةٍ في ورقةٍ جريدةٍ، أمَّا روحي فقد اقتفَتْ رائحة بلادٍ جديدة، لكنَّ جسدي مُمَدَّدٌ بجانبِ جثثٍ أخرى في أحدِ المراكز الطبيَّة التابعةِ لمنظمة أطباءَ بلا حدودٍ في جزيرة رودس. يقتربون من جثَّتي، وعلى خِلاف الباقين، لم يجدوا بحوزتي أيَّ وثيقةٍ رسميَّةٍ أو بطاقةٍ أو مستندٍ يدلُّ على هويتي، حيث كانت عادةُ اللاجئين الذين يعبُرونَ البحرَ أنَّهم يَضعونَ أوراقَهم وجوازاتِ سفرِهم في أكياسٍ بلاستيكيَّةٍ ويضعونها داخلَ ملابسهم لِئَلا تتمزَّقَ أو تضيعَ أو يُتلفُهَا الماءُ حين يضطرُّون للسباحة، وقد فعلْتُ هذا، لكنَّها ضاعت مني حينَ كانَتْ الأمواجُ تقلِبُني رأساً على عقبٍ، لكنَّهم وجدوا ورقةً صغيرةً في جيبي، كانت مبللةً، بالكاد يستطيعون قراءتها، كنْتُ قد كتَبْتُها في بداية رحلتي من لبنان، على متن تلك الناقلة ذات الرائحة الكريهة، وكان معنا في تلك السفينةِ ببغاءٌ أذكُرُهُ جيّداً، لكنّي نسيْتُ ماذا كان يردِّدُ حين شعرَ صفوان بالضيقِ والغضبِ لوجوده، أينَ يكون صفوان الآن؟؟ لو كنْتُ حيّاً لكنْتُ بحثْتُ عنه، لكن صفوان لا يموتُ فصفوان يفّهم الحياةَ بطريقةٍ سلسةٍ ومن يكونُ مثل صفوان لا يموتُ غرقاً، بالعادة، من مثلُ صفوان يموتُ بالإيدز أو المخدراتِ أو على عتبةِ حانةٍ، أمَّا الذين

مثلي فينتظرونَ نردَ الحياة، والرميَّة الرابحة تُبقي راميها أمَّا الرميةُ الخاسرة فتقتله.

ربما أصبح صفوان في وطنٍ جديدٍ، ومع الوقت سيحاول الوطن القديم أن يسرقه من الوطن الجديد وعندها سيكون قد أصبح غريباً لدرجةٍ يستطيع خلالها أن يكون بلا جنسيَّة، سيكون قد تحرَّرَ من عبوديته وجفَّ حنينه، فالحنين أيضاً عبوديَّة، والرحيل لم يحرره فلقد كان حرّاً من الداخل، منذ البداية.

لم يجدوا معي أيَّ أوراقٍ تثبتُ شخصيتي، ولكنهم وجدوا الورقة التي كتبتها على متن سفينة (ألكسندر فرندز) حيث كتبْتُ حينها:

«الآن أَخرُجُ من رحمِ الجحيم، وأطلقُ زفرتي الأولى، الرحلة أربعمائة واثنان وستون».

وبعد فترةٍ قصيرةٍ، وبعدَ أنْ استكملوا كلَّ التحقيقات وحصلوا على جميع المعلوماتِ التي يريدونها من الذين حالفَهم الحظُّ وبقوا على قيدِ اللجوء، جاؤوا بتلك الأكفان التي تشبه الأكياسَ الكبيرةَ والتي كانوا يضعون بها الغرقى ثم يغلقونها بشكلٍ مُحكَم كأنَّهم كانوا يخافون أنْ يهربَ الأمواتُ ويتسللوا من جديدٍ إلى أوروبا، بينما كانَتْ امرأةٌ تكتُبُ في تقريرها الذي سترسِلُهُ للشرطة اليونانية عن الحادثةِ وتصفُ ما حدث، وتسجِّل أعداد الغرقى وأسماءهم واحداً واحداً، وعندما ستصلُ إلى جثَّتي ستكتُبُ أنني جثَّةٌ مجهولةُ الهويَّة ولا يحمِلُ أيَّ أوراقٍ ثبوتيَّةٍ أو جوازَ سفرٍ ولديه فقط ورقةٌ

مكتوبٌ عليها عبارةٌ بلغةِ البلادِ القادم منها، وتفيد العبارةُ بعدَ ترجمَتها (بشكلٍ رديءٍ) أنني قادمٌ من بلادٍ تدعى بلاد الجحيم، في رحلةٍ تحملُ رقمَ أربعمائةٍ واثنين وستين، ثم تأتي التوابيتُ، ولكلِّ واحدٍ منَّا تابوتٌ منفردٌ تُرمَى فيه لوحدكَ دونَ أنْ يضايقَكَ أحدٌ كما هو الحالُ في المقابرِ الجماعيَّة في بلادي، أدركْتُ وأنا على أبوابِ أوروبا، أنَّ أوروبا بلادٌ مختلفةٌ، وتحترم الموتى أيضاً، وتعطي كلَّ ميّتٍ حقَّه المتمَثّلِ في كفنٍ لائقٍ يشبه الأكياسَ الكبيرة، وتابوتٍ من الخشبِ بدونِ زخارفَ، وهويةِ تعريفٍ للميتِ، ويضعونهُ في مكانٍ مناسبٍ في برَّاد أحد المستشفياتِ مع تحليلِ DNA للجثَّةِ.

إنَّهُ ترفٌ غير موجودٍ في بلادنا، فهنا لكلِّ تابوتٍ رقمٌ، وعليه ورقةٌ مكتوبٌ فيها اسم الميت وبلدهِ، أما نحن موتى الدرجة الثانية أو موتى النوع الرديء وهم الذين يكونون مجهولي الهوية، فيضعون على توابيتهم أرقاماً وأحرفاً ورموزاً لسهولة التصنيف، مع ملفٍ فيه صورةٌ فوتوغرافيَّة للجثَّة وتحليل DNA وصورةٌ طبق الأصل لتقريرِ خفرِ السواحلِ، إضافةً للمقتنياتِ التي كانت بحوزةِ الجثَّة إن وجدَتْ.

إنَّه ترَفٌ غيرُ موجودٍ في بلادنا فبالكادِ يسمحونَ للموتى في بلادي أنْ يشاركوا بالتصويتِ بالانتخابات البلدية. يُدركُ الغارقُ على أبواب أوروبا أنَّه خسرَ خسارتين، الأولى خسارةَ وطن غير موجودٍ والثانية خسارة منفاه. كما يُدرك الناجون بالوصول إليها أنهم خسروا خسارةً واحدة.

اقـتربَ مـن التابـوت أحـدُ الذيـن يعملـون في تصنيـف جثـثِ اللاجئـين، وبشـكلٍ احـترافيٍّ وضـع الورقـة المكتـوب عليهـا بلغـةٍ يونانيـة:

«المهاجر: أربعمائةٍ واثنان وستون

الجثَّة: مجهولة الهوية

اسم البلاد القادم منها: بلاد الجحيم».

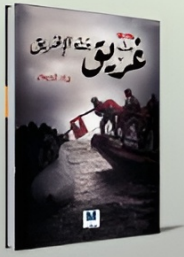

جنة الإغريق؟ يحق لهارب من الجحيم أن يسميها كذلك ولكن هل هي كذلك فعلا أم هي جهنم آخرى؟ أمر محير حقا، هل نحن عندما يحملنا الموج مبتعدا بنا عن شواطئ تركيا نكون قد غادرنا الجحيم وانتقلنا الى الجنة؟ بالتأكيد الجنة لا تقع على هذا الشاطئ ولا على ذاك ولكن الفرق بينهما هو كالفرق بين الفندق والبيت أيهما أفضل؟ لا بالتأكيد !! فالفندق لا يعوض الإنسان عن بيته . ولكن حين يكون البيت مدمرا ومحروقا وترتبط زواياه بذكريات الموت والدم والجثث يصبح أي مأوى أفضل منه، خاصة إذا كانت إعادة بنائه شبه مستحيلة وشهية الموت لم تتوقف بعد.

الجنة حين تعيش كريما حيث ولدت، وحيث لا يجرؤ رجل أمن على المساس بك لإنه يخاف القانون، وألا يخشى المحامي من الدفاع عنك لإنه يدرك أن القانون ليس صورة معلقة على حائط.

إلى متى سيستمر ذلك ؟؟هذا ما لا نعرفه!!

فالمنتصر في بلادنا لا يأخذ العبرة بل يعيد انتاج نفسه بشكل أكثر صفاقة وأكثر استبدادا، كائنا من كان المنتصر، وحتى الثائر على الاستبداد يتحول عندنا الى مستبد قبل أن تصبح أدوات الاستبداد بين يديه بعد، وإلى ذلك الحين سيبقى الملح يحرق عيوننا ونغرق ونحن نعبر البحر بين جهنمين.

د.ممدوح حمادة

مكتبة نوميديا 230
Telegram @Numidia_Library

ISBN 978-614-479-821-3
9 786144 298213
Madarek
مدارك